





أوروبا التنوير

تأليف بيار - إيف بورويير

ترجمة د. محمد علي مقلد



بيار - إيف بوروبير



أوروبـا التنويـر

ترجمة

الدكتور محمد علي مقلّد

دار الكتاب الجديد المتحدة

أوروبا التنوير

Original Title:
L'Europe des Lumières
by **Pierre-Yves Beaurepaire**

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية عام 2004
في دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في فرنسا

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2008

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2008 إفرنجي

أوروبا التنوير

ترجمة الدكتور محمد علي مقلّد

موضوع الكتاب تاريخ
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
الحجم 17.5 x 11.5 سم
التجليد عادي

ردمك ISBN 9959-29-402-1
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
رقم الإيداع المحلي 2006/7820

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 39 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 11-96 رياض الصلح ـ بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + نقال 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

مقدّمة المؤلف للطبعة العربية

ما من أحد في الغرب يمكن أن يشكك في راهنية الأنوار، إن المبيعات بالمزاد العلني التي طالت كتابات من القرن الثامن عشر تفسر ذلك الشغف: فعملية بيع ست وعشرين رسالة من فرنسوا ماري أرواي ڤولتير (François-Marie Arouet Voltaire) إلى كاترين الثانية (Catherine II)، التي تمت في باريس في 30 مايو 2006، في الدار المعروفة Sothby's، ضربت كل المقاييس بالنسبة لرسالة من القرن الثامن عشر، بمبلغ 600,000 يورو. في الوقت ذاته استقبلت المكتبة الوطنية الفرنسية معرض الأنوار! إرث للمستقبل، كما خصصت جريدة اللوموند Le Monde الفرنسية صفحة كاملة نشرت عليها مقابلة كبيرة أجرتها يومي 5 و 6 مارس (آذار) مع أحد مسؤولي المعرض، تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov)، مع عنوان «مازال أمام الأنوار الكثير لتقوم به في عالم اليوم». للمفارقة، مازال الكثير من الأنوار بحاجة إلى الاكتشاف. في أحيان كثيرة اختزلت الأنوار في مجموعة نجوم أساسيين في سديم لعب فيه «صغار المعلمين»، أي الأسماء المغمورة من البوهيميا الأدبية روبير دارنتون (Robert Darnton)، أصحاب المصنفات المنوعة، المنخلون، أصحاب المكتبات ودور النشر المُهيَّأون لولوج دروب التزييف ونشر النصوص المتمردة، دوراً أساسياً. لقد شجع المؤرخون، لاسيما الفرنسيين، منذ عقود، على دراسة الممارسات

الاجتماعية في القرن الثامن عشر، مسجلين مجموعة من النجاحات وحالات من التقدم العلمي كبيرة الأهمية، إلا أنهم، لهذا السبب، تخلوا عن تاريخ الأفكار للأدباء الذين غالباً ما تميل-مقارباتهم إلى النظر إلى النتاج الأدبي بحد ذاته، من زاوية جمالية، من غير أن يبذلوا الجهد الدائم لوضعه في سياقه التاريخي والسياسي والثقافي والتقني والاجتماعي والديني. إن السيرة الذاتية لا يمكن أن تحل محل البيئة المتحركة التي ينضوون إليها، على العكس، إن النتاج الرسمي لمؤرخي الأنوار يتأثر بتاريخ الأفكار وحركة تنقلها، وهكذا فإن مؤرخين أصيلين يدرسون نتاجهم وكيفية تلقيهم هذا النتاج. غير أنهم، على خلاف المؤرخين الفرنسيين، في الغالب، قليلو التأثر بالممارسات الاجتماعية ومجازفاتها، هذه المحاولة تريد أن تبيّن ضرورة الدمج بين المقاربتين من أجل كتابة تاريخ الأنوار الأوروبية وتشجيع كتابة تاريخ اجتماعي أصيل للممارسات الثقافية في القرن الثامن عشر.

معرفة أوروبا الأنوار تعاني أيضاً مركزية - فرنسية في المقاربة مازالت شائعة أيضاً، ليس في فرنسا فحسب، بل على نطاق أوسع، في قلب المجموعة الأوروبية، أوروبا الأنوار ليست هي أوروبا ڤولتير (Voltaire). صحيح أن الإشعاع الفرنسي حصل فعلاً غير أنه متعدد ومتناقض؛ وقد درست الإسهامات الفرنسية باهتمام، غير أنها خضعت للنقاش والتكيف والمواءمة، كما أنها رفضت أحياناً. المترجمون والوسطاء الثقافيون الذين ينشرون في أوروبا النتاجات والأفكار الفرنسية هم الذين يبلورون قوالب قومية للمسرح والصحافة الدورية والأفكار السياسية لا تنسى، الأجانب، فنانين وشركاء أرستقراطيين، دبلوماسيين وعلماء، مسافرين وهواة تجميع، لعبوا دوراً أساسياً في الإشعاع الباريسي داخل أوروبا، فصارت باريس، مذ ذاك، عاصمة أوروبية للأنوار

أكثر منها العاصمة الفرنسية لأوروبا الأنوار. أخيراً إن افرطنا في التشديد على راهنية الأنوار نغفل بذلك المسافة الضرورية للمؤرخ عن موضوعه، وخطر المغالطة التاريخية، ماذا يقال مثلاً عن هذه الأفكار التي قالها تزفيتان ثودوروف إلى صحافي جريدة اللوموند: «كانت توجد في البداية (بداية مشروع المعرض في المكتبة الوطنية في فرنسا) نيّة كفاحية: التذكير بالمبادئ الكبرى للأنوار بدا لنا أمراً لا غنى عنه في لحظة تاريخية موسومة بالحادي عشر من سبتمبر وبالاعتداءات التي قامت بها حركة تزمت ديني ضد العلمانية، ضد المساواة بين الرجل والمرأة»؟ حتى تُفهم الأنوار بغناها وتعقدها، من المناسب، على العكس، إعادتها إلى سياقها، أي أوروبا القرن الثامن عشر، بين «مجتمع الأمراء» (لوسيان بيلي) و«جمهورية الآداب»، اعلان مبادئ كوزموبوليتي وتوكيد وعي قومي، من غير أن ننسى أبداً أن ممثلي الأنوار الراديكالية، المادية والملحدة، على الصعيد الأوروبي هم أقلية ضئيلة جداً، وأن الأنوار هي في غالبيتها الساحقة مسيحية وتنتقد، من هذه الزاوية في الغالب، ديدرو (Diderot) وڤولتير نقداً شديداً.

مقدّمة المترجم

ربما حملت تلك المرحلة اسم «الأنوار» لأن ما سبقها كان ظلاماً. حدث ذلك حين قررت أوروبا الاستفاقة من سبات القرون الوسطى. غير أن سيرورة اليقظة استمرت طويلاً في الزمان وانتشرت في كل أرجاء القارّة.

بدأت الأنوار من الكوجيتو الديكارتي المعروف : «**أنا أفكر، إذن أنا موجود**». بدأت من اللحظة التي تحرر فيها العقل، عقل الفرد، من مكبلاته الغيبية، التي بدأ فيها نتاج العقل البشري يتواصل ويتفاعل مع بعضه بعضاً، من مغرب أوروبا إلى مشرقها، من لندن ومدريد ومالَقَة وليشبونه إلى موسكو، ومن شمالها في السويد حتى جنوى والبندقية.

الأنوار تواصل وتفاعل. لذلك قيل إن الحضارة التي أطلقها العقل البشري شيدتها المواصلات ووسائل الاتصال، وها هي الحضارة اليوم، بعد أن أدركت ما أدركته في مجال اكتشاف المجاهل في الطبيعة وفي النفس البشرية، في الأرض والبحر والسماء، تستمر بابتكار أشكال من التواصل لم تكن تتخيلها مرحلة الأنوار الأولى.

عصر التنوير الأوروبي بدأ إذن من الفكر والقلم والكتابة. هو وريث جمهورية الآداب والأكاديميات والبحوث العلمية والصالونات الفكرية والأدبية.

إنه عصر الصحافة والجرائد، بكل أجيالها، من التقارير المكتوبة بخط اليد إلى جيل جديد أطلقته المطابع. من التقارير السرية إلى المراسلات على امتداد أوروبا. من صحافة الأخبار الشخصية والحميمة إلى تلك المتخصصة في العلوم وفي الآداب وفي كل النتاج الفكري. من الصحافة المحلية إلى تلك التي كانت توزع على المشتركين في كل العواصم.

هذا الكتاب ضرورة للمكتبة العربية، لكنه لا يكفي. هو ضرورة لأنه يطلعنا على هذه الصور المتعددة للأنوار. لكنه لا يكفي لسببين: الأول، هو أن المؤلف، رغم كل الجهد المبذول في تقديم لوحة بانورامية شاملة عن مآثر الأنوار وإنجازاتها في كل أوروبا، لم يستطع الإفلات من قبضة المركزية الفرنسية؛ والثاني، أن الكلام عن تنوير أوروبي أو فرنسي ينبغي أن يشكّل حافزاً للبحث عن إجابة على سؤال التنوير العربي، وهي إجابة لن نجد عناصرها في هذا الكتاب، وإن كان في الإمكان أن نعثر فيه على ما يثير فينا التساؤل.

إذا كان القرن الثامن عشر هو قرن التنوير الأوروبي، فالتاسع عشر هو قرن التنوير العربي. إلا أن الأول كان أوروبياً بالاسم والفعل، بينما كان الثاني عربياً بالاسم، مصرياً ـ لبنانياً بالفعل. هكذا قدمت صورة التنوير إلى القارئ العربي، من خلال ما ظهر في مصر بعد نابوليون بونابرت (Napoleon Bonaparte) وفي لبنان بعد حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام، أي في كلا البلدين بعد احتكاكهما بالغرب.

بدأ التنوير العربي بالاستشراق والصحافة. بالرغم من السنوات الطويلة التي مرت على بداية البحث العلمي، لم يتحول

هذا الميدان المعرفي جزءاً من التقاليد العربية، وظلت «الأكاديميات» تعاني عدم اهتمام كافٍ من جانب المؤسسات السياسية. أما الصحافة، وهي صنو حرية التعبير عن الرأي، فقد تطورت على خط موازٍ لتطور حالة الحرية في العالم العربي، فتحولت من مشروع سلطة رابعة في الدولة المتخيّلة والمأمولة، دولة الفصل بين السلطات، إلى مؤسسة تابعة للسلطة السياسية. ناهيك بالقيود التي تكبل المطبعة والنشر، وتقطع أواصر الصلة بين مؤسسات الثقافة والعلم، بعد أن غدا العالم العربي عوالم، والأمة أمماً.

مع ذلك يستحق التنوير العربي أن يحاط بالعناية، لا في مجال التوثيق فحسب، بل في مجال التحليل والنقد، من أجل أن ينفتح أفق للمستقبل يستطيع معه العالم العربي، خلال القرن الحادي والعشرين، أن يستأنف الدخول في حضارة العصر، من باب الثقافة والعلم، لا من باب الاستهلاك، بعد أن كاد يخرج منها في القرن العشرين.

مقدّمة

يتجسد البناء المعاصر أوروبياً، في نظر البعض، وفرنسياً في نظر لويس ريو (Louis Réau) ومارك فومارولي (Mark Fumaroli). غير أن أوروبا الأنوار تعصى على كل تعريف بسيط. المشكلة الأولى تتعلق بحدودها التي، كلما ازدادت حدة نُظر إليها كحدود حضارية. لقد كان انتماء روسيا إلى أوروبا موضوع نقاشات حامية في القرن الثامن عشر، مثلما يثير اليوم ترشيح تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي عاصفة من السجالات، يميل البعض إلى أوروبا الإنكليزية بدل أوروبا الفرنسية، متذرعين بالهزائم الفرنسية خلال الحرب على عرش إِسبانيا (1701 ـ 1713) وحرب السنوات السبع (1756 ـ 1763)، وبالجاذبية السياسية والفلسفية والاقتصادية والاجتماعية التي برزت لدى القوة الإنكليزية. تجدر الإشارة إلى أن الانحياز إلى الإنكليز أخذ يتقدم على الانحياز إلى الفرنسيين ويتحول إلى نفور منهم.

يظهر جلياً أن هذه السمات لا تكفي وحدها لتحديد أوروبا. فما الذي يمنع من أن يتناول الكلام أوروبا الأميركية، خصوصاً إذا طال الحديث التزام الأرستقراطية ورجال الثقافة بقضية المتمردين في المقاطعات الثلاث عشرة الإنكليزية في أميركا الشمالية، وبمطالبتهم بحق الاستقلال والعيش بسعادة؟ كما ينبغي كذلك التشديد على التحولات في إِسكُتلندا التي، رغم وجودها على

تخوم أوروبا وإذلالها من جانب إنكلترا ـ هانوڤر عام 1745، دخلت بقوة ونجاح في مرحلة من النمو المديني والاقتصادي، بالترافق مع انطلاقة ملحوظة للأنوار الإسكُتلنديةِ في المجالين السياسي والاقتصادي. لقد صارت أدنبره «Édimbourg»، من دون شك، قطباً محدداً في بنية الفضاء الفكري الأوروبي والسجالات التي تحركه. مع ذلك، لم يكن الكلام على أوروبا إسكُتلندية ينطوي على دلالة كبيرة. غير أن التركيز على غنى المساهمة الإسكُتلندية في عمليات التبادل العلمية والفكرية وفي ترسيخ ثقافة سياسية واقتصادية، وعلى حيوية العلاقات الاجتماعية المدينية وقدرتها على التجديد والإبداع، وهي علاقات أطلقتها المحافل الماسونية، (الرأي الغالب يرى أن هذه المحافل أقدم عهداً من شقيقاتها ومنافساتها الإنكليزيات) والأندية والجمعيات، من شأنه أن يقدم صورة أخرى عن أوروبا الأنوار، صورة أقل اختزالية لكن أكثر دقة.

كل ذلك لأن أوروبا القرن الثامن عشر هي فسيفساء دول (موزاييك)، وهذا معطى أساسي، وهي مساحة من التواصل والاتصال المتفاوت بشبكاته البريدية وصحفه المنطلقة بسرعة وشبكات أقنيته وطرقاته. ولئن طمحت الطوبى التقنية إلى أن تغدو حركة التنقل والانتقال السلمي المنسجم بين البشر وبين الأفكار والأخبار والبضائع حركة بلا حواجز، فتبلغ ذروتها، فلأن السبب بالتحديد يتعلق برواد الأنوار الذين حلموا بتسريع الزمن وتقليص المسافات بوتائر أسرع بكثير مما كان قد تحقق على صعيد وسائل الاتصال. من هنا رسوخ نموذج جمهورية آداب النهضة، وكونية طائفة أهل الثقافة الموحدين تحت راية الأنوار، وتقدم العقل والعلم من أجل المصلحة العامة وسعادة البشر.

لكن، هنا أيضاً تبرز الصعوبات وتعصى أوروبا الأنوار على

كل تعريف مبسط ذي بعد واحد. وإلا فلماذا أبدى إيمانويل كانط (Emmanuel Kant) حاجة ليمسك الملف، عام 1784، ويجيب على السؤال الذي كان ينخر أوروبا أهل الأدب حول هويتها وحدودها ومشروعها: ما هي الأنوار؟ لأن الأنوار بالجمع لا بالمفرد: على أنوار العقل والعقلانية، وأنوار المادية الملحدة عند البعض، تجيب أنوار التقى والورع التي نلحظ اليوم أهميتها واتساع مداها، وأنوار اللاعقلاني والغريب العجيب ـ الكيمياء القديمة لم تمت في القرن الثامن عشر واستمرت العلوم الرفيعة تثير الدهشة، بما في ذلك من الطابع الدنيوي الذي يمكن أن يميزها. الأنوار الفرنسية Les Lumières والألمانية l'Aufklärung لم تعزف لحناً واحداً. الحملة ضد التعصب صدمت عدداً من متنوري ألمانيا. في ألمانيا بالذات، النقد الملتزم الذي وضعه دانيال شودويسكي (Daniel Chodowiecki) عن صورة المتنور لم يكن محل إجماع: «مهمة العقل السامية هذه لم يكن لها بعدُ شعار مجازي واحد غير شعار الشمس المشرقة. لا شك في أن هذا الرمز ظلّ ملائماً لمرحلة طويلة، وذلك بسبب الضباب المتصاعد دوماً من المستنقعات ومن المباخر والضحايا المحترقة على المذابح الوثنية، التي يخشى من أن تحجب نور الشمس. لكن، مهما قلّ وقت الإشراق فالضباب لا يهم. الملاحظة ذاتها تنطبق على شعار الأنوار الألماني الذي كان موضوع تأويلات متعددة ومتناقضة، تبدأ بالأمينين على حرفية النص وعلى جمهورية آداب القرن السادس عشر حتى الأكثر التزاماً في معارك الأنوار الجذرية وفي السجالات التي تهز المشاعر العامة، بأكثر معاني هزّ المشاعر حدة في القرن الثامن عشر.

لهذا لا يشك أحد في أنَّ بعض تيارات الأنوار، كتيار الأنوار الراديكالي، كان له حضور أوروبي حتى لو كان مجزّأً أو

محصوراً في منطقة معيَّنة. في مثل هذه الشروط، لا تكون أوروبا الأنوار هي أوروبا ڤولتير مثلما لا تكون أوروبا النهضة هي أوروبا إِيرَسموس Érasme (إنسانوي في القرن السادس عشر). إذا كان إطلاق لقب «ملك عموم جمهورية الآداب» الذي أطلقه «المطبعجي» بونيفاس أمرباش (Boniface Amerbach)، من مدينة بال، على صديقه إِيرَسموس، قد أثار نقداً عنيفاً في القرن السادس عشر، فإن «الملك» ڤولتير قد تعرض أيضاً لنقد واعتراض من جانب رواد أصيلين من عصر الأنوار رأوا فيه مستبداً متسلطاً، بل طاغية.

لماذا إذن لا يجري استكشاف المستبدين المتنورين على حَلْبة أوروبا، الذين أذهلوا الفلاسفة وشدوا انتباههم ووظفوهم في جوقاتهم، بل خدعوهم، على غرار ما فعل ڤولتير في تجربته المريرة مع فريدريك الثاني (Frédéric II)؟ لا شك في أن هذه الظاهرة كانت ذات بُعد أوروبي. فهي تعني بشكل أساسي بومبال Pombal في البرتغال تحت حكم جوزف الأول (Joseph I^er^) وماريا فرانسيسكا (Maria Francisca) (1756 ـ 1777)، وإِسبانيا أيام شارل الثالث (Charles III) (1759 ـ 1788) ومملكة بوربون «Bourbon» الأخرى في إِسبانيا أيام شارل الثالث اللاحق (1735 ـ 1769)، والنمسا أيام جوزف الثاني (1765 ـ 1790)، وبروسيا أيام فريدريك الثاني (1740 ـ 1788)، وساكس «Saxe» (ألمانيا) وفريدريك أوغوست الثاني (Frédéric Auguste II) (1733 ـ 1763)، وبولونيا وستانيسلاس بانياتوفسكي (Stanislas Poniatowski) (1764 ـ 1795)، وروسيا وكاترين الثانية (1762 ـ 1796)، والدانمرك أيام الوزير سترونسي (Struensee) والملك كريستيان السابع (Christian VII)، والسويد أيام غوستاف الثالث (Gustave III) (1771 ـ 1792). لكن ذلك لم يشمل امتداد القرن بأكمله. من ناحية أخرى، ظلت قوى

أساسية مثل فرنسا وإنكلترا على الهامش.

صار مفهوماً أن سبر أغوار أوروبا الأنوار يفترض بذل الجهد لصوغ تاريخ أوروبي حقاً. لنلاحظ، من ناحية أخرى، أن الاتحاد الأوروبي قد استشعر الضرورة العلمية والثقافية والسياسية حين وضع أمام الباحثين عرضاً طموحاً بكتابة «تاريخ أوروبي لأوروبا». ينبغي القطع مع منهج تجميع الكيانات الوطنية ـ القومية لتركيب فضاء أوروبا الأنوار ـ هذا، من غير أن نتجاهل أبداً تفاعل تلك الكيانات مع الجغراسيا المتحركة للقارّة الهرمة ـ بديناميتها وخطوط قوتها وضعفها على صعد مختلفة: صعيد العمل المحصور لدى هواة البحث، أو أبعد من ذلك أيضاً، بل المحاط بالشك، صعيد البحث الأكاديمي. كذلك من الضروري التخلص من تصوير أوروبا الأنوار تصويراً مغلوطاً قوامه تفاهم الطوائف الدينية وتعايشها السلمي، وطمس الصراعات والتوترات والحروب التي اندلعت فيها وأحدثت فيها جراحاً، بغية جعلها نموذجاً لبناء سياسي منسجم. من هذه الزاوية، لا يمكن للمؤرخ أن يتخيل أوروبا على طريقة عالم الاجتماع إدغار موران (Edgar Morin)، الذي دعا المثقفين المعاصرين، عام 1987، إلى التواصل مجدداً «مع تراث علماني متحدر من العصر الوسيط، حيث كان الكهنة أوروبيين بالفطرة (...) تراث تطور في الأزمنة الحديثة وصولاً إلى الوعي الأوروبي الكوزموبوليتي المشترك لدى فلاسفة الأنوار». في المقابل، لا يمكن طمس وجود وعي أوروبي صاغه بطريقة رائعة جيبون Gibbon، في كتابه «انحطاط الإمبراطورية وسقوطها» (1787):

«واجب المواطن، قبل كل شيء، تأمين السعادة والمجد لبلاده؛ لكن للفيلسوف الحق في توسيع نظرته واعتبار أوروبا

بمثابة جمهورية كبيرة بلغ سكانها المستوى ذاته تقريباً من التربية والثقافة. لقد تمّ تعديل على توازن القوى، فمرّت مملكتنا أو الممالك المجاورة بمراحل من العظمة أو الانحطاط؛ غير أن هذه الأحداث الجزئية لم تؤثر على وضعنا المريح إجمالاً، ولا على فنوننا وقوانيننا وعاداتنا، وعلى كل ما كان يجعل بلدان أوروبا ومستعمراتها أفضل من سائر بلدان العالم».

لم يكن الإشعاع الثقافي والفني الفرنسي الذي تعمم بقوة بفضل نجاح النموذج الباريسي ـ لكن، وبسبب ذلك، الأوروبي، وذلك بفعل الطابع الكوزموبوليتي للمجتمع الجديد ـ ونجاح الذوق والحياة الدنيوية، كافياً ليجعل أوروبا الأنوار أوروبا فرنسية. غير أن النموذج هذا لم يكن محط نظرة سلبية؛ فقد تمَّت قراءته وتأويله واعتماده وتهجينه وهضمه، ورفضه في بعض الأحيان. كما استُخدم أحياناً كحاضنة لثقافة قومية قيد البناء، خصوصاً في الفضاء الألماني، بالطريقة ذاتها التي تقاطعت فيها الكوزموبوليتية والوطنية واغتنت الواحدة بالأخرى، أو تعارضتا أو تواجهتا، على امتداد القرن الثامن عشر، لا سيما لدى جوهان هردر (Johann Gottfried Herder) (1744 ـ 1803) الذي طالب بحقوق الثقافة الألمانية في مواجهة هيمنة الأنوار الفرنسية، التي تعمم الكوزموبوليتية، وذلك قبل أن يحاول الفيلسوف يوهان غوتليب فيخته (Johann Gottlieb Fichte)، من دون جدوى، أن يفصّل هذه الحقوق مع بداية الأنوار. بديلاً عن الإشكالية التي بدأت مع دخول الأنوار الفرنسية إلى الثقافات القومية الأخرى، من الأفضل أن تُدرس بمزيد من الدقة أشكال التبادل الثقافي والقراءات واللقاءات بين الأفراد، مترافقة مع نتاج مميّز والتزامات جماعية. ينبغي وضع أوروبا الأنوار على محك التجربة: سهولة الحركة لدى

الطلاب والدبلوماسيين والأرستقراطيين والتجار والفنانين والعلماء والماسونيين والعسكريين، وحرية انتقال الأعمال الفنية والتقارير الصحافية عنها وترجماتها ونسخاتها المزيفة.

فضاء أوروبا الأنوار هو إذن موضوع هذا الكتاب. ووقوع الاختيار على تقديم أوروبا الأنوار وليس أوروبا القرن الثامن عشر - ليس المقصود أبداً عرض توليفة عن الأنوار - يشدد عمداً على التاريخ الثقافي وعلى ظاهرة يبرز فيها الطابع الأوروبي في صورة جليّة: مقابل الأنوار الفرنسية Lumières هناك الإنكليزية l'Enlightenment والإيطالية l'Illuminismo والألمانية Aufklărung والإسبانية l'Ilustración، حتى لو كانت بمدلولات مختلفة ولو لم تكن متزامنة. غير أن اتساع نطاق هذه الظاهرة والوعي الأوروبي لدى أجيال تجندت بالتتابع لإزاحة ظلمات الجهل، وبإجماع أقل، ظُلمات الخرافة، ينبغي ألا يستر تعدد وجوهها وتناقضاتها وتعرجاتها وتفاوت وتائرها. لن نجد هنا صالة العرض التقليدية التي تضم صور كبار شخصيات الأنوار، فلاسفة أو أمراء متنورين، أو مختارات من الآثار الأدبية لذاك العصر، مقتطفة ومنتقاة في الغالب بمعزل عن الظروف المحيطة بإنتاجها وانتشارها واستقبالها. إن الاحتفال النوستالجي بالمداولات الدنيوية وبالعالم (الدنيا) المختفي من الصالونات لا يسلط الضوء على المجازفات والتحولات التي أخذت تشع في حياة المجتمع، وكانت باريس الكوزموبوليتية، بلا منازع، نجمها الأساسي ونموذجها.

لهذا، لا يعني الانتباه للمكان (الفضاء) ولحركة الانتقال، أن على تاريخ الأنوار أن يتجاهل الأبحاث الأدبية المتعلقة بالقرن الثامن عشر. وإذا كان لتاريخ الأفكار الكلاسيكي حدود، فإن بعض

المقاربات، في المقابل، واعدة. وهكذا، نقرأ في التوليفة الأدبية التي وضعها ديديه ماسو (Didier Masseau)، ابتكار المثقف في أوروبا القرن الثامن عشر: «بصورة أكثر شمولية برز الشعور بوجود طائفة أنوارية أوروبية، قائمة على أساس نمط جديد من الفهم للعالم، وهم البحث عن الحقيقة، وقت لم تكن فكرة الأمة قد ولدت بعدُ وأشكال التضامن التقليدية تخضع لهزّة حاسمة. والحال أن المثقفين أسهموا في ابتكار روابط جديدة مبنيَّة على المواهب والمعرفة، بعيداً عن أشكال التفاوت الاجتماعي وما ينجم عنه من فرز، وعن الانتماءات المؤسساتية والدينية التي يمكن نعتها بالعمودية. وهكذا ولد فضاء من التواصل سهَّل رحلات السفر وتنامي العلاقات الأكاديمية الأوروبية، وانطلاقة الماسونية وتطور الصالونات الأدبية». إذا كانَ هذا العرض المجمل يستحق، بلا شك، أن يكون محدداً بدقة، فينبغي، على كل حال، أن نرتاح إلى أخذ المكان بالحسبان، لأن من دونه لا يمكن أن يُكتب تاريخ للأنوار أوروبي حقاً وفعلاً.

الفصل الأول

جمهورية الآداب
أم أوروبا الأرستقراطية؟

I ـ إرث جمهورية الآداب

١ ـ كيف نتخيل أوروبا القرن الثامن عشر؟

أن نتخيلها، في نظر مكللان (James McClellan)، يعني «أن نفكر في الأكاديميات وفي جمهورية العلوم والآداب الذائعة الصيت» التي عرّفها لورين داستون (Lorraine Daston) بكونها «الأرض الحقيقية بين دول ذات سيادة في عصر الأنوار». الحقيقة أن أوروبا الأنوار مرتبطة عادةً بل مطابقة ومماثلة لجمهورية الآداب والعلوم والفنون؛ «يوتوبيا كوكبية» حرّكت البحاثة الأوروبيين منذ بداية عصر النهضة حتى فجر الأنوار من إيرَسموس (Érasme) حتى بيير بايل (Pierre Bayle)؛ جماعة مثالية عالمة، حيِّز تتم فيه حركة التنقل والتبادل المنسجم ـ زعماً ـ المتحرر من الوصاية السياسية والاجتماعية والطائفية. لقد وضعت

المساواتية في المقدمة كسمة مميّزة لجمهورية الآداب وما أورثته للأنوار الأوروبية: «إننا نرى، يقول الكاهن أرنولد (Arnauld)، أهل الأدب، من غير ما تمييز بينهم، كمواطنين في الجمهورية الوحيدة ذاتها، جمهورية الآداب، التي يكون جميع أعضائها متساوين، وحيث من غير المسموح لأحد أن يمارس الطغيان». في المقدّمة التي كتبها ديميزو (Pierre Desmaizeaux) (1673 ـ 1745) لرسائل بايل (Pierre Bayle)، شدّد هو الآخر على استقلالية جمهورية الآداب واستقلالية أفرادها: «إنها دولة منتشرة في كل الدول، جمهورية كل فرد فيها مستقل استقلالاً كاملاً ولا يعترف من القوانين إلا بتلك التي يلزم نفسه بها».

عام 1763، في وقت كانت أوروبا تستعيد حالة السلم بعد سبع سنوات من حرب داخل القارّة ذات بُعد دولي لما لها من امتدادات وتأثيرات في المستعمرات، لفت ريشار دو روفاي (R. de Ruffey)، رئيس أكاديمية العلوم والفنون والآداب في مدينة ديجون «Dijon» إلى «أن الأكاديميات هي جاليات شتى لجمهورية الآداب» التي صورها ڤولتير بصفتها «مجتمع العقول الكبير المنتشر في كل مكان، المستقل حيث ينتشر».

مع ذلك لا تضم موسوعة الأنسيكلوبيديا مادة تحت اسم «جمهورية الآداب». عندما تحدث ديني ديدرو عن رابطة فلسفية كان يعني تجمعاً طوعياً ملتزماً في الحقل العام ومعاركه، في حين كانت الأغلبية من جمهوريي الآداب تريد أن تحدد حقل تواصلها البحثي والعلمي بعيداً عن هذه السجالات. فضلاً عن ذلك، هل يقلل انتشار الأكاديميات والمؤسسات العلمية وانتشارها داخل أوروبا من الأهمية التي يمكن إيلاؤها للأمراء وللدول؟ بمعزل عن الصلات المعقودة بين ما يسمى مؤسسات، على الصعيد الرسمي،

أو على الصعيد الفردي بين عالم وآخر، كان من الطبيعي أن يؤثر التدخل المتزايد من جانب الدول في القرن الثامن عشر على الاستقلالية التي أشار إليها لورين داستون. سفركر سورلين (Sverker Sörlin)، على وجه التحديد شدد على أهمية السياق القومي والمصالح القومية؛ ومن غير إنكار رسوخ نموذج جمهورية الآداب في القرن الثامن عشر، ينبغي طرح التساؤل حول الصور التي كانت في مخيلة أهل الأنوار أو التي رسموها، وحول طريقة التوصل إليها وحيازتها لتحديد الوجهة المحتملة والمقاصد والالتزامات الأخرى. كما أن من المفيد أيضاً التمييز بين التصورات والممارسات، بين الفضاء الأوروبي للأنوار والنموذج الطوباوي.

2 ـ علاقة ثقافية

عندما ذهب بيير بايل للدراسة في جنيف، وهو الذي صار فيما بعد ناشر «أخبار جمهورية الآداب» (أمستردام، 1684 ـ 1718)، كتب لشقيقه البكر جاكوب (Jacob)، المقيم في كارلا «Carla» في مقاطعة فوا Foix، أي بعيداً عن جمهورية الآداب والتواصل العلمي:

«أخبرتك في رسالتي الأخيرة أن شاباً ذا أهمية اسمه بازناج [جاك بازناج (1653 ـ 1723)، مؤلف «تاريخ مؤلفات العلماء» عام 1702]، نسكن معاً، يبحث عن إقامة أوسع الصلات في كل اتجاه، ولن يزعجه أن يكون على صلة بك. إنه يحب الآداب بشغف، ويعرف دائماً آلاف الأشياء الجميلة والمثيرة عن ربات الفنون التي تجعلك تستمتع بها في هذه البلاد المهجورة البعيدة عن مصدر الأخبار (...) غير أنه ليس مستحيلاً عليك، وهو ما قلته

لك في رسالتي الأخيرة، أن تنال نصيبك من هذه المراسلات. فضلاً عن كونك تملك موهبة الكتابة، وكونك جدولاً ينساب من ينبوع، فأنت قادر على أن تعلم هذا الشخص ما تتفتق عنه ربات الفنون في غويانا Guyenne ولانغدوك Languedoc اللتين لا يذكر عنهما شيء هنا».

بيير بايل يشهد، في شبابه، على أهمية التواصل الأدبي كحق دخول إلى جمهورية الآداب، ولكن أيضاً كوسيلة تواصل بين أفراد طائفة علمية مشتتة متفرقة ـ شتات أصلي لا يمكن أن يترك أهل الهوغنوت (Huguenot) (بروتستانت) بمنأى عن تأثيره ـ، لكنها طائفة ذات هدف مشترك هو تقدم العقل والمعرفة والأنوار. قبل ذلك، في عام 1666، كان أعضاء في أكاديمية فلورنسا في سيمانتو «Cimento» قد دعوا إلى «حرية تواصل بين مختلف المجتمعات المشتتة، مثلما هي الحال اليوم، على امتداد أشهر مناطق العالم وأكثرها أهمية» وتخيل وجود «أكاديمية ورق (كتابة)». بعد قرن من الزمان، عام 1785، اغتبط غومس دوليما (Gomes de Lima)، مؤسس الأكاديمية الطبية البرتغالية Academia Portopolitana Medicina، لتخلي العلماء البرتغاليين والإسبان عن «اهتماماتهم المألوفة والقومية» لأن «رجال الأدب يتخذون العالم كله وطناً لهم». قبل ذلك بعشرين عاماً، في مدينة ميلانو تبنّى بيترو فيري (Pietro Verri) (1728 ـ 1797)، الوجه الأساسي للأنوار في لومبارديا (في إيطاليا) Lombardes، أن يكون المشاركون في الدورية «إل كافيه» (المقهى) (1764 ـ 1766) من «المواطنين العالميين الصالحين» الذين وضعوا نصب أعينهم «فحسب، تقدم العلوم والفنون والفضائل الاجتماعية». أما جان أنطون كوندورسيه (Jean Antoine Condorcet)، ممثل آخر جيل من الأنوار، فقد عرض في «مقطع على الأطلنطي أو تضافر جهود

الجنس البشري من أجل تقدم العلوم»، وهو البحث الثاني بعد «نظرة إجمالية على لوحة تاريخية عن تقدم العقل البشري»، مشروعه لعقد «اجتماع عام لعلماء الكرة الأرضية في جمهورية عالمية للعلوم»، وهذا وحده الامر الذي لن يكون «وهماً سخيفاً». إن وضع التقدم العلمي موضع التنفيذ بصورة جماعية، والقيام بالأبحاث والنشر المنتظم، بإرادة المشاركين في أن «يثقفوا عقولهم ويزيدوا أنوارهم»، إن كل ذلك أساس في تنظيم هذه الجمهورية العالمية تنظيماً قائماً على التناسق والانسجام، جمهورية قائمة على «المساواة الكاملة في الحقوق بين الأفراد من الجنسين (...) وفي القوانين وفي المؤسسات وفي كل حقول النظام الاجتماعي». إيمانويل كانط أشار هو الآخر، في كتابه «نقد العقل المحض» إلى «الجمهورية العلمية» التي تعمل من أجل «السعادة الشاملة».

II ـ أوروبا الأنوار الأكاديمية والعلمية

1 ـ الأكاديميات

على صعيد ملموس صار المدى الأوروبي مشبعاً حتى الثمالة بشبكة الاتصالات الأكاديمية وتجهيزاتها للتواصل والتبادل (مراسلات، نشر تقارير عن الأنشطة، انتخاب أعضاء مشاركين، مساعدات). بعد مضي قرن تقريباً على إنشاء الجمعية الملكية في لندن (1662)، والأكاديمية الملكية للعلوم في باريس (1666)، قامت أكاديمية في مملكة النروج الخاضعة لحكم الدانمارك (1760). عن طريق الروابط مع مدينة البندقية دخلت جزيرتا كريت «Crète» وكورفو «Corfou» اليونانيتان نادي الأكاديميات. ففي حين كانت كورفو قد عرفت بين عامي (1656 ـ 1716) أكاديمية أسيكوراتي

Assicurati، أُنشئت عام 1732 أكاديمية كوس فوبوس Quos Phoebus.

استكمل المشهد الأوروبي بتكاثر الجمعيات الاقتصادية، تغطية للنقص في المجال الأكاديمي في المناطق. وهكذا، إذا كان عدد الأكاديميات قليلاً في إسبانيا، فقد انتشرت حوالى ثمانين جمعية اقتصادية في المملكة ومستعمراتها وراء البحار. كذلك انتشرت في ألمانيا جمعيات عديدة وطنية واقتصادية من بينها جمعية ساكس الاقتصادية التي أقيمت في الساحة التجارية والحِرفية الكبرى. في فرنسا عُقد العزم على تطوير العلوم التطبيقية وعلى شرح دروس عمومية والاستجابة إلى طلبات جمهور أوسع من فئة العلماء والفضوليين الذين يتمتعون بأوقات الفراغ من الأرستقراطيين، فنشأت المتاحف. في باريس قامت مؤسستان متنافستان، وفي المقاطعات، في بوردو «Bordeaux» وميتز «Metz»، نهضت جمعية الفيلاتين Philatènes، وكذلك في مدينة ليل «Lille» كوليج دو فيلاليت Philalèthes (1785)، وجمعية أصدقاء الحقيقة التي كادت أن تحصل على اعتراف أكاديمي بوجودها مع نهاية النظام القديم.

إن استقطاب الفضاء العلمي من قِبل مؤسسات التراسل الأكاديمي وشبكاته بات أمراً لا شك فيه. مع نهاية القرن السابع عشر سعى الكاردينال جيوڤاني جيوستينو سيامبيني (Giovanni Giustino Ciampini) إلى أن يعيد إلى روما دورها في قلب جمهورية الآداب فأصدر عام 1667 «جريدة الأدب»، أول دورية في البحث العلمي الإيطالي، مع مجموعة أكاديميات علمية وأدبية وأخرى مختصَّة بتاريخ الكهنوت، من بينها الأركاديا Arcadia التي تأسست عام 1690؛ وعلى طرف القارَّة، كان لا بدَّ،

وهو ما تيقّن له بيير لوغران (Pierre le Grand)، لكي تندمج روسيا في الفضاء الأوروبي، الثقافي والعلمي والسياسي والدبلوماسي، من أن تتأسس فيها، على وجه التحديد، أكاديمية ملكية (إمبراطورية) للعلوم وأن يتجند فيها علماء أجانب ذوو مدى أوروبي. هذا ما حصل عام 1725 غداة موت القيصر.

نابولي «Naples»، التي تعتبر من بين أكثر مدن أوروبا من حيث الكثافة السكانية، والتي ترسخ دورها كقطب منظم لفضاء الأنوار الإيطالي، كان لها أخيراً، عام 1778، أكاديميتها الملكية للعلوم والآداب. في العام ذاته كانت الظاهرة الأكاديمية قد بلغت المستعمرات مع باتاڤياش غنوشاب ڤان كانستن Bataviaasch Gnootschap Van Kunsten في ويتنشابن «Wetenschappen» في الهند الهولندية، فضلاً عن المؤسسة الأكاديمية الفرنسية الوحيدة وراء البحار: الجمعية الملكية للعلوم والفنون في منطقة الرأس الفرنسي في سان دومينغ «Saint-Domingue» (1784).

2 ـ الانتسابات المتقاطعة

لا يكفي رسم خريطة المؤسسات الأكاديمية بطريقة جامدة، لأن الأنوار الأكاديمية تقاطعت وتبادلت شهادات الصداقة والاعتراف العلمي. وهكذا يكون تقاطع الانتساب قد أسهم عملياً في إقامة شبكات للدرس والسهر العلمي، وجسّد بالملموس الانتماء إلى طائفة أوروبية عالمة. عام 1750 كان للجمعية الملكية، على سبيل المثال، 74 مراسلاً أجنبياً، بينهم 34 في فرنسا، 11 في ألمانيا، 10 في إيطاليا، 9 في سويسرا وجنيف، 5 في المقاطعات المتحدة. من بين 714 عضواً التي كانت قد انتخبتهم أكاديمية برلين، حتى عام 1799 (مؤسسها وأول رئيس لها هو غونفريد

فيلهلم لايبنتز، عام 1700)، 149 عضواً؛ أي 21٪ من مجموع الأعضاء، ينتسبون إلى الجمعية الملكية في لندن، 107 أعضاء (15٪) إلى أكاديمية كوريوسوروم الطبيعية Academia Naturae Curiosorum (مؤسسة ليوبولدية لا مقرَّ ثابتاً لها تضم أطباء وعلماء طبيعة)، 103 (14٪) إلى أكاديمية العلوم في باريس، 92 (13٪) إلى أكاديمية سان بطرسبرغ، 49 إلى أكاديمية غوتنجن Göttingen المؤسسة عام 1751، 38 إلى أكاديمية ميونيخ المؤسسة عام 1759. وهكذا أفسحت هذه التجربة لأكاديميي برلين وسان بطرسبرغ مجالاً لاستئناف نشاطهم وحضورهم الأوروبي خلال مختلف الأزمات التي شهدتها القارة.

أدى تجنيد العلماء الأجانب كأعضاء عاديين أو يحملون لقب العضوية إلى تعزيز أَوْربة هذه الظاهرة والملاكات الأكاديمية فيها. فقد كان الفرنسي موبرتوي (Maupertuis) (1698 ـ 1759) رئيساً لأكاديمية برلين، ومنذ 1720، عضواً في أكاديمية العلوم في باريس وفي الجمعية الملكية ثم في الأكاديمية القيصرية للعلوم في سان بطرسبرغ عام 1738. أما مواطنه لارانج (Lagrange) (1736 ـ 1813) فقد مرَّ في تورينو «Turin» قبل أن يلتحق بأكاديمية برلين عام 1766 كعضو عادي، ثم بأكاديمية العلوم في باريس (كمنتسب أجنبي عام 1772 وموظف خبير عام 1787)؛ ثم صار عضو شرف في أكاديمية بطرسبرغ عام 1776، فضلاً عن انتسابه إلى الجمعية الملكية (1791)، وإلى أكاديمية غوتنجن (1801) وأكاديمية ميونيخ (1808). أما بالوا ليونارد أولر (Bâlois Leonhard Euler) (1707 ـ 1783) أكبر علماء الرياضيات في عصره، بلا منازع، فقد بدأ مجاله العلمي في سان بطرسبرغ بصحبة الأخوين نيكولاس ودانييل برنوللي (Nicolas et Daniel Bernoulli) عام 1727، ثم التحق عام 1741 بأكاديمية برلين، بدعوة من فردريك الثاني الذي تولى

العرش عام 1740، وتمنى أن يعيد تنظيم الأكاديمية. حتى أنه في الحقيقة، وجّه المؤسسة عند موت موبرتوي عام 1759. وعلى أثر خلاف مع ملك بروسيا، استقر نهائياً في روسيا عام 1766، غير أنه حافظ على روابط وثيقة مع أكاديمية برلين، التي كان القس البروتستانتي جان هنري صموئيل فورماي (Jean Henri Samuel Formey) (1711 ـ 1797) المقرّب من آل أولر، سكرتيرها الدائم، والتي سمّاها «طفله الرضيع».

3 ـ الأكاديميات والتعليم

يشهد مثال روسيا على العلاقة القائمة بين المؤسسات الأكاديمية والتعليمية العليا والعزم على توظيف الطاقات العلمية لدى الأكاديميين في سبيل نشر المعارف وتنشئة الطلاب. حين عاد ليونارد أولر نهائياً إلى روسيا عهدت إليه في مهمة كبيرة: النهوض بأكاديمية سان بطرسبرغ المأزومة رغم مشاريع لومونوسف Lomonossov الإصلاحية. والحال أن إعادة التنظيم لم تكن فحسب ذات وجه علمي، بل هي ذات طابعٍ إداري أيضاً، لأن عدداً من المؤسسات والخدمات كان مرتبطاً بالأكاديمية: دار التربية (ما يوازي الكوليج دو فرانس في النظام القديم) المكتبة، المطبعة، غرفة التحف النادرة، الحديقة النباتية ـ بما في ذلك الأقل توقعاً كالهيئة العسكرية. وهي أيضاً ذات طابع تربوي لأن ليونارد أولر اقترح لها خطة تربوية تهتم بمؤسسات التعليم الثانوي والعالي التابعة للأكاديمية. الغرض القريب المدى هو تحضير علماء ومعلمين روسيين ذوي كفاءة.

يمكن أن تنطلق المبادرة من الجامعة لتصب في الحقل الأكاديمي، حيث يفضل الأساتذة الاعتراف بالرأسمال العلمي

وتقديره حق قدره، مجموعاً في إطار واحد هو إطار المؤسسة التي يعملون فيها. تلك هي بالضبط حالة غوتنجن. في بادو «Padoue»، حيث كانت الجامعة الشهيرة في العصر الوسيط تكاد تفقد توازنها، كان سيمون ستراتيكو (Simone Stratico)، الأستاذ في الطب، يهيِّئ برامج لإصلاح المؤسسة تركز على مصلحة المؤسسة الأكاديمية في تحفيز البحث الجامعي وتسهيل التبادل العلمي مع الخارج.

هذا الجمع بين الأكاديمية وبين التعليم العالي ليس ابتكاراً خاصاً بالأنوار الأوروبية، فهو يُظهر، في الواقع، تعلقاً ثابتاً بالنموذج الإنسانوي وبجمهورية الآداب، الذي انتشر وشاع في القرن السادس عشر. فقد ظلَّ الجامعيون والأكاديميون يعبِّرون عن قلقهم، كما فعل هذا الأستاذ في الطب في بادو عام 1783، حين أثارته فكرة جمع المعارف كلها في جامعة واحدة: «في كل يوم يتمُّ القفز بجسارة من الميتافيزيق إلى الفنون الميكانيكية، من الأخلاق إلى الابتكارات المهيأة لإثارة المشاعر والأحاسيس وإيهام العقول، من شجارات المدارس إلى موضوعات التجارة، من القانون الطبيعي إلى القوانين الوضعية لدى الأمم، ومن المبادئ العلمية نستخرج تطبيقات بالغة الفائدة للشأن العام وللشأن الخاص، ويتمّ البحث، من غير تخمين، أي من طريق الملاحظات الدقيقة، وبواسطة التجارب الحاذقة، عن القوانين الخفية في الطبيعة».

إذا كانت الجامعات الفرنسية موضوع نقد مشروع في القرن الثامن عشر - باستثناء واضح يخص جامعة ستراسبورغ اللوثرية، بسبب وضعها الجغرافي ودورها كصلة وصل مع الفضاء الألماني وتأثيرها الأوروبي وعلاقاتها التنافسية بالجامعات الألمانية - فإن بعض الجامعات الأجنبية، في المقابل، كانت تشارك

بفعالية في حركة تنقل المعارف وفي تنشيط فضاء الأنوار الأوروبي. تقول حنَّة سعادة: «على خلاف الأنوار الفرنسية، كانت الأنوار الألمانية (أوفكلارونغ Aufklärung) وثيقة الصلة بالجامعة؛ ثم إنها لم تنهض في مواجهة الدين بل به ومعه». مثال غوتنجن بالغ الدلالة. فقد تحولت الجامعة في منطقة هانوڤر «Hanovre» التي يحكمها ملك إنكلترا منذ 1714، من مؤسسة تخلفت زمنياً عن سواها (1737) إلى قطب منظم للفضاء الجامعي الأوروبي. كانت مكتبتها مثالاً يُحتذى في كثير من المشاريع الأوروبية، في حين كان أساتذتها يستقطبون طلاباً من كل أنحاء القارَّة، حيث كانت مبادراتهم في الصحافة الدورية تساعد على مثل هذا الانتشار: ظهرت صحيفة لاغازيت ساڤانت La Gazette Savante عام 1739، في حين أصدر الاختصاصي في العلوم السياسية والمؤرخ والإحصائي أوغوست لودويك شلوزر (August Ludwig Schlözer) (1735 ـ 1809) مع نهاية القرن الثامن عشر، من جامعة غوتنجن أيضاً، نشرة المراسلة التي تتضمن، بشكل أساسي، مسائل تاريخية وسياسية (1778 ـ 1782)، والجريدة السياسية La Gazette Politique (1783 ـ 1793)، ذات الاهتمام بمسائل الأحداث اليومية. هذا، وكانت غوتنجن قد ضمت أيضاً أكاديمية عام 1751.

مؤسسات أخرى طرفية لم تكن أقل مشاركة في بذل جهود التنشئة والانفتاح على العلم وعلى المثال الأعلى لنشر أنوار المعرفة. كما يمكن القول أيضاً إن وضعها الجغرافي «الهامشي» ـ كوضع معاق ـ قد دفعها، بمعنى ما، إلى مضاعفة جهودها لتلحق بأوروبا الأنوار وتشارك في مبادلاتها الثقافية. تلك هي، على وجه الدقة، حالة أكاديمية مون آتوس Mont-Athos (1753 ـ 1758) بدفع وتحفيز من قِبل إڤجنيوس ڤولغاريس (Evgénious Voulgaris)، رائد

الأنوار في اليونان، مترجم السر إسحق نيوتن (Isaac Newton) وفولتير إلى اليونانية الحديثة. لقد كان راغباً في تزويد طلابه المئتين بثقافة ممتازة، فراح يزودهم بأحدث الاكتشافات التربوية، ونظم دراسة جامعية على مدى تسع سنوات وترجم لهم مؤلفات أساسية مثل كتاب «المنطق» «La Logique» لدوهاميل (J.-B. Duhamel)، وكتاب «Essai» للوك Locke، و«مدخل إلى الفلسفة «Introduction à la Philosophie» لغرافيزاند (Gravesande)، و«الميتافيزيق «Métaphysique» لجينوفيزي (Antonio Genovesi) (1713 ـ 1769)، «أول أستاذ في الاقتصاد السياسي في أوروبا» دومينيك بولو Dominique Poulot، و«مبادئ الحساب (الجبر) «Élements d'Arithmétique» لكريستيان وولف (Christian Wolff) (1679 ـ 1754)، و«مبادئ الهندسة «Élements de Géometrie» لأندريه تاكيت (P. André Tacquet) (1612 ـ 1660)، و«الفيزياء «Élements de Physique» لووشرر (J. F. Wucherer). لكن التجربة سرعان ما تعرقلت من قِبل معارضي الأنوار، دون أن يقلل ذلك من أهميتها وتأثيرها، بالتالي، في نشر طلائع الأنوار في منطقة البلقان.

III ـ علماء وهواة

1 ـ جمهوريو الآداب

على الصعيد الفردي، ظلّ عدد من العلماء يدرجون أبحاثهم والتزاماتهم العلمية في إطار جمهورية الآداب. حالة جان ـ دانيال شوفلين (Jean-Daniel Schoepflin) (1694 - 1771) نموذجية. هو أستاذ التاريخ والفصاحة في جامعة ستراسبورغ اللوثرية، منذ العام 1720، أكثرَ من رحلاته، بهدف التحصيل العلمي، إلى فرنسا وإيطاليا وإنكلترا (1726 ـ 1728)، وإلى المقاطعات المتحدة، أي

البلاد المنخفضة حالياً، وإلى البلاد المنخفضة النمساوية، أي بلجيكا الحالية، وإلى باريس (1731) وألمانيا وبوهيميا والنمسا (1738) وسويسرا (1744)، حيث كان لبعض هذه الرحلات جانب دبلوماسي. قبل عقود على تأسيسه مدرسته الدبلوماسية الشهيرة، كان شوفلين قد بدأ يهيّئ لمشروعه مجهِّزاً شبكة واسعة من العلاقات والصداقات والحمايات العلمية والأميرية، وأثبت أنه ماهر في مجاله، منذ عام 1725، عندما أتيحت له الفرصة، بمناسبة احتفالات تزويج لويس الخامس عشر (Louis XV)، بالتوكيل، من ماري لسزنسكا (Marie Leszczynska) في ستراسبورغ، لأن يلقي، باسم الجامعة، خطاباً مميَّزاً أمام صفوة من الحضور، ما جعله يدخل في علاقة مع ستانيسلاس لسزنسكي (Stanislas Leszczynski) وكذلك مع ممثلي الأمراء الألمان والقصر الملكي الفرنسي. ولم يتردد الجامعي الستراسبورغي، بعد ذلك، في تنشيط شبكة علاقاته هذه بعناية وإشباعها على حساب مواطنين آخرين من جمهورية الآداب؛ وهكذا أمكن له، من موقعه كمؤرخ رسمي ومستشار مسموع الكلمة لدى الملك، أن يحصل، عام 1746، من الكونت موريباس (Maurepas)، وزير الملك لويس الخامس عشر، على حق استعارة المخطوطة المسماة مانيس Manesse، المحفوظة في المكتبة الملكية، لصالح بودمر Bodmer، الشاعر السويسري في زوريخ؛ رافضاً كل العروض للانخراط في جامعات مرموقة كجامعة أوبسال Upsal في السويد، وليدي Leyde في المقاطعات المتحدة. جمع شوفلين نياشين الشهرة والتكريم العلمي: هو زميل في الجمعية الملكية عام 1728، عضو لائحة القيود في أكاديمية الآداب في باريس عام 1729، وكذلك في أكاديميات كورتون Cortone وسان بطرسبورغ وبيزانسون Besançon وفي جامعة غوتنجن. إن تعلقه بالتنشئة الجامعية والحقل الأكاديمي

(شارك، بدعم من أمير البلاط في إنشاء أكاديمية مانهايم Mannheim، حيث احتلت مادة التاريخ موقعاً أساسياً في الدراسة، وكذلك في أكاديمية بروكسل) ومجموعة بحوثه عن تاريخ الألزاس تشهد على إخلاص شوفلين لقيم جمهورية الآداب. لقد أعرب عن ميله إلى اللاتينية، مع أنها حدَّت من انتشار مؤلفاته؛ كان يبدي شغفاً بفقه اللغة والنقوش الكتابية، ولذلك جمع كمّاً كبيراً من المصادر والقطع الأثرية وكامل بين مساهمات العلوم المساعدة على كتابة التاريخ. على صعيد علم السلطة، درّس شوفلين التاريخ الجرماني والأوروبي المعاصر ودرَّب كادرات الدبلوماسية الأوروبية، ذلك أن التاريخ ينبغي أن يشكّل، في نظره، موضوع شروح علمية دقيقة؛ لهذا انتقد، داعماً رأيه بالحجج والبراهين، منهج ڤولتير التاريخي. على صعيد أعم ظلَّ أكثر أمانةً على مقدمات الأنوار وممهداته أكثر منه للأنوار الفرنسية التي كان عديم الثقة بها. كما ندد بالمغرمين بالأدب وبفلاسفة برلين الفاسقين، وأدان «تفاهة مؤلفي ومؤرخي آخر موضة الذين يتفوق، في نظرهم، الأسلوب والفكر السطحي على المضمون، ويتغلب الفكر الزائغ والضلال على الحس السليم». وفي آڤينيون Avignon، الحبيسة البابوية داخل المملكة الفرنسية، أعرب الطبيب وعالم الطبيعة إسبري ـ كلود ـ فرنسوا كالڤيت (Esprit-Claude-François Calvet) (1728 ـ 1810) بصورة واضحة وجلية عن تعلّقه بجمهورية الآداب والعلوم.

2 ـ التبحر في العلم بدل معارك الأنوار

ليس ضرورياً الإكثار من الأمثلة. إن جمهورية الآداب والعلوم لم تمت في القرن الثاني عشر، غير أن أوروبا الأنوار لا تتماهى بها، أو للدقة، بصورتها المرسومة والمتخيلة في العصر الكلاسيكي،

استناداً إلى صنف أدبي معيَّن. لقد كانت حنَّة غولدغار (Anne Goldgar) مقنعة في تحديدها عام 1730 عام تحرر الأنوار من جمهورية الآداب. الحقيقة أن توليفة هانز بوتز (Hans Bots) وفرانسواز واكيت (Françoise Waquet) في كتاب «جمهورية الآداب»، تستند إلى حد كبير إلى أمثلة مأخوذة من القرنين السادس عشر والسابع عشر. أما بيتر ن. ميللر (Peter N. Miller) فهو يشير إلى أن جمهورية الآداب بلغت ذروتها في القرن السابع عشر؛ غير أن انتقادات لورانس بروكليس (Laurence Brockliss) الموجهة حديثاً إليهم في شبكة كالفيت (Calvet's Web) Le Réseau Calvet ومحاولته الرامية إلى أن يفصل الأنوار وجمهورية الآداب أو بالأحرى أن يجعلهما متزامنين لا تتوافق مع ذلك. فمن الواضح أن إسبري كالفيت أقام علاقاته الوثيقة على هامش فضاء الأنوار الأوروبي، حيث كان طبيب آفينيون يقدم نفسه كعالم أثري وخبير بدافع الفضول، وكانت «شبكته»، على قول بروكليس ذاته، تشكّل جمهورية مصغرة مع روابط باريسية تكاد تكون غير موجودة، وهي روابط محصورة، في الواقع، في الكونت دو كايلوس (de Caylus)، النموذج المثالي لها، وصوَّب عليه ديدرو الذي وضع هذه الكتابة القاسية على شاهدة القبر (صالون 1765): «لقد أنقذنا الموت من أكثر الهواة فظاظةً. هنا يرقد عالم أثري شرس ونزق. آهٍ! فليسكن سعيداً في هذه الجَرَّة الأثرية». إن العلاقات البابوية التي أقامها الطبيب الآفينيوني لا تتقاطع بل لا تتطابق مع المراسلات «الكبرى» إلا بطريقة احتمالية. زد على ذلك أن العدد القليل من تلامذة كالفيت ادّعوا اقتناء الموسوعة (أنسيكلوپيديا)، فسلوكهم مغاير لذلك. لقد كان مجالهم مناطقياً، بل حتى محلياً؛ ولا يغيّر في الأمر شيئاً إن قام بعض المسافرين الأجانب بزيارتهم في مناسبة ختام مرحلة ما، لأن من الطبيعي أن تحصل مثل هذه الزيارات

للبحاثة المرموقين. هذا المجال المحدود ليس مقفلاً إذن: إنه يتغذى من مبادلات قصيرة المدى وينفتح عرضياً على أخبار وحركة انتقالات ذات مدى أطول، مما سنعرضه في الفصل اللاحق. وقد كانت تسهم في ذلك الدوريات العلمية والتقارير الأكاديمية والمراسلات غير المنتظمة. غير أن كالڤيت ظل، عن اختيار واعٍ، منعزلاً عن معارك الأنوار والسجالات الفلسفية والسياسية، ولم يكن لحقله البحثي حد مشترك مع الحقل العام، فلا بيانات ڤيري Verri وكوندورسيه Condorcet هي بياناته ولا برامجهما برامجه. على غرار الكثيرين من أكاديميي المناطق، جان فرانسوا سيغييه (Jean-François Séguier) في نيم «Nîmes» مثلاً، كان قد فهم مشروع كوندورسيه بطريقة مغلوطة. لكنه في المقابل، كان يعرف كيف يغوص في صمت حجرته وفي صمت وقت يقبض عليه الهاوي، وفي طمأنينة التواصل مع المخطوطات، وهو تواصل يفلت من إكراهات النشر المطبوع وضغط الكتابة ـ من تكوين رأسمال علمي، بهدوء، بعيداً عن المساجلات. إن موقف كالڤيت قريب، في المحصلة، من موقف جان لوكليرك (Jean Le Clerc) الذي كتب عام 1684 ما يلي: «على العلماء أن ينعموا بحرية فحص الأشياء بذاتها في الحجرة، وأن يفكروا فيها بما يرضيهم، وأن يقيموا فيما بينهم صداقة ودودة، في جو من الحرية، وألاّ يغتاظ بعضهم من بعض إذا لم تكن أفكارهم متطابقة، وألا ينقلوا خلافاتهم وينشروها على الملأ، ذلك أن الشعب لا يرى فيها أكثر من مجرد ألغاز، وهو لا يملك الوقت ولا القدرة على تعميقها والدخول إليها، ولا يعرف أن يتناولها بصورة سليمة أو أن يُحسن استخدامها».

هكذا انتقد كالڤيت المناهج التاريخية لدى ڤولتير المستعجل دوماً إلى منازعة مخالفيه، والجاهز لتوظيف التاريخ في خدمة

قضيته. يلتقي كالڤيت هنا مع شوفلين، في حين كان هذا الأخير مشغولاً بتبادلات الأدوار والوظائف في أوروبا ومشاركاً في النشاطات الدبلوماسية والسياسية. لقد كان البحاثة الآڤينيوني، من دون شك، مواطناً في جمهورية الآداب، عاملاً متواضعاً في ورشة بعيدة المدى، يتأثر بتقدم المعارف وبالمصلحة العامة. لكنه، شأن آلاف البحاثة الأوروبيين، لم يجد في أوروبا الأنوار المكافحة المجال الذي تندرج فيه أبحاثه والتزاماته. لهذا لا يمكن أن نطابق، جملةً ومن غير تفصيل وتمييز، بين جمهورية الآداب وأوروبا الأنوار، أو بين البحاثة و«الفلاسفة». إن انتشار أفكار الأنوار، التي لن نشير إلى أنها كانت متعددة (هكذا ندرس اليوم «الأنوار المتدينة» التي ظلت طويلاً مهملة)، لم يتبع إذن، «بصورة طبيعية» القنوات التي استخدمتها جمهورية الآداب. لقد كانت المقاومة فيها قوية، ولم يكن ممكناً تجاهل عدم الاكتراث المتبادل، وكذلك تنوع مراكز الاهتمام. ثلاثة من جمهوريي الآداب الأصيلين تحدثوا بحدة، في مراسلاتهم، عن الطغيان الذي مارسه ڤولتير بحق جمهوريتـ«هم»، إنهم: بروسبير مارشان (Prosper Marchand) (1678 ـ 1756)، بروتستانتي فرنسي لاجئ في لاهاي، ناشر وصاحب مكتبة، استكمل الطبعة التذكارية لقاموس بيير بايل (Pierre Bayle) «القاموس التاريخي والنقدي»؛ جان روسي دو ميسي (Jean Rousset de Missy)، صحافي، أورانجي (من أنصار سلالة ملكية داعمة لحركة الإصلاح البروتستانتي)، أحد رواد الماسونية في المقاطعات المتحدة؛ لامبير إينياس دوفيل (Lambert Ignace Douxfils)، من مواليد نامور وسكان بروكسل، كاثوليكي، مع أنه كان يكتب لصديقَيه قائلاً: «نحن البروتستانتيين...»، عالم لغة مميَّز، مولع بالكتب النفيسة لكنه مفلس.

IV ـ أوروبا الأرستقراطية والمجتمع النبيل

1 ـ الحياة الاجتماعية

عودٌ على بدء، شكّل التبحّر البحثي والتكوين الثقافي الجامعي والآفاق الأكاديمية مادة نقد حاد من قِبل «أهل الأدب»، فلاسفة وكتّاباً، الذين أخذوا يبرزون كجماعة. فهم تبنوا «الأعراف الدنيوية» لكي ينخرطوا في علاقات اجتماعية دنيوية تستمد معايير المعرفة والمرتبة الاجتماعية والصيت من نموذج مجتمع البلاط. إن أوروبا الأنوار لم تشكّل المرحلة الثانية من تطور ميكانيكي لجمهورية الآداب باتجاه الانخراط في الشأن العام، وفي تسييس الحقل العلمي ونقد النظام القديم. لا شك في أن أوروبا الأنوار استعادت المثال الأعلى لجمهورية الآداب، لكنها لم تتطابق معه، بل تجاوزته وعارضته أحياناً بحثاً عن مدخل إلى الحقل العام، بالمعنى الذي قصده جورغن هابرماس (Jürgan Habermas) في كتابه الهام التأسيسي، أي معنى الحقل التواصلي. في المقابل، تستحق الفرضية التي أطلقها أن تُناقش، وهي الفرضية التي يرتبط تكوُّن الحقل العام، استناداً إليها، بتأكيد العلاقات الاجتماعية «البرجوازية» المستقلة بالقياس إلى نموذج مجتمع البلاط. إن الدراسات الحديثة حول العلاقات الاجتماعية الأوروبية في القرن الثامن عشر تشدد، في الحقيقة، على رسوخ النموذج الأرستقراطي الدنيوي. إن الأنظمة الفروسية المختلطة، كنظام الموبسوس Mopses في ألمانيا والبلاد الإسكندينافية أو نظام الفيليسيتي Félicité في فرنسا وبولونيا، وكل تفرعاتها وتعديلاتها، لاقت نجاحاً كبيراً، في نظر بعض الفاسقين. كما أن أروقة القصور، في قلب الماسونية الأوروبية التي سندرسها في الفصل الثالث، كانت محكومة بأنظمة الطاعة وسلطة الولاء.

الأرستقراطيون وأصحاب النسب الرفيع يحركون، هم أيضاً، المشهد الاجتماعي، حيث يلعبون، فيما بينهم، دور الممثلين والمشاهدين، يجمعون التسلية الأدبية الدنيوية، التي يوفرها أهل الأدب إلى لعبة الجاذبية والإغراء، (أنطوان ليلتي (Antoine Lilti)). كانت هذه الظاهرة ذات مدى أوروبي، وينبغي التركيز على انتقال الأعمال المسرحية، مكتوبة أو مطبوعة، انتقالاً مكثفاً يشمل أعمالاً لشارل كوللي (Charles Collé) أو لويس كاروجي (Louis Carrogis) الملقب بكارمونتيل (Carmontelle)، وذلك عن طريق مسافرين ذوي مستوى متميِّز، من باريس إلى سان بطرسبرغ. عام 1771، لم يكن المؤلف الحقيقي لمسرح الأمير كلينيرزو (Clénerzow)، الذي قدمه البارون السكسوني بلينينغ (Blening) كترجمة فرنسية لمسرحيات روسية مثل «المتقلبون المزيفون»، «البطاقة المفقودة»، «الخادمات الصديقات» (مسرحيات من مشهد واحد)، «العشاء أو الزواج على الموضة»، «ممثلون نبلاء» (مسرحيات من مشهدين) (1771)، لم يكن إلا كارمونتيل (1717 ـ 1806)، أحد المؤلفين الفرنسيين الأساسيين للمسرح الأرستقراطي. غير أن هذا المسرح لم يكن استيراداً فرنسياً، ذلك أن الأمر يتعلق بتيار دنيوي أوروبي سعى كلٌّ إلى امتلاكه واقتباسه وإغنائه. في روسيا، أسهم ممثلو أكبر العائلات في ذلك بقيادة كاترين الثانية بالذات؛ وفي غوتا «Gotha»، الدوقة لويزا دوروثي، دوقة ساكس ـ غوتا (Saxe-Gotha)، ابنة عم فريدريك الثاني (Frédéric II) من بروسيا، فعلت الشيء ذاته، ولمع اسمها خارج حدود الإمارة الصغيرة. فقد عرفت كيف تدير الاحتمالات المختلفة للصلات الأرستقراطية الدنيوية: نظام فروسي مختلط ـ النساك المبتهجون البشوشون ـ مقصورات البلاط بإدارة أبنائها، مسرح أرستقراطي وأميري، استقبال حميم لأهل الأدب، الذين لم تكن تعوزهم المجاملات: لقد

جعل ڤولتير من بلاد مينرف ألمانيا Minerve de l'Allemagne «معبد النِّعم والأفضال والعقل والروح والبِرّ والسلام»، في حين مدح غريم Grimm «أميرة معروفة في أوروبا بعقلها ومواهبها وكذلك أيضاً بفضائلها».

2 ـ الصالونات: مسرح دنيوي

الصالونات، التي أطلق عليها التعبير الرمزي أروقة، تدل، هي الأخرى، على أن أوروبا الأنوار لم تمهد بصورة آلية لأوروبا الثورات. إنها تندرج أيضاً وكثيراً في مجتمع الأمراء لوسيان بيلي (Lucien Bély) والقصور، وهي حرَّكت مملكة العادات والتقاليد والذوق في أوروبا، ثم انتشرت في العالم. وهي أكدت تميُّزها ـ بالمعنى الذي قصده بيير بورديو (Pierre Bourdieu) ـ واعترفت لنفسها بالحق الحصري في تصنيف المؤهلين للانتماء إليها. إن «عالم الصالونات»، على ما قاله أنطوان ليلتي في أطروحته المميَّزة، «هو هذا الموقع المركزي الذي يمنح الرواد سلطتهم، ويحقق، بالتالي المصلحة في ارتياد الصالونات بقصد الاختيارات الأكاديمية. هنا أيضاً لم يكن للصالونات أن تلعب مثل هذا الدور باعتبارها «صالونات أدبية»، أو مؤسسات في جمهورية الآداب، بل بصفتها أشكالاً هجينة غُرست بقوة في الحياة الدنيوية والشبكات النادرة. وهي أتاحت لفرصة التأثير في الحقل الأدبي، وكذلك في الوسط المحيط بالملك ومستشاريه ووزرائه، الذين يُمسكون بمفاتيح المؤسسة الأكاديمية». الصالون ليس مؤسسة في جمهورية الآداب الأوروبية، إنه، بتحوله جزءاً من الحياة الدنيوية، صار قادراً على تزكية الترشيح الأكاديمي من غير أن يصبح مقرراً فيه.

إن انتشار «الانوار الفرنسية» التي كان إشعاع صالوناتها تقليدياً واحداً من المظاهر التي فرضت نفسها، يتقاطع كثيراً إذن مع الشائع في أوروبا عن هذا الأنس الدنيوي الكوزموبوليتي الذي كان الأجانب يسهمون فيه بنشاط خلال إقامتهم في باريس. الأمر لا يتعلق أبداً باستقبال سلبي، لأن الكوزموبوليتية الأنوارية ليست نزعة شمولية بلا حدود ولا مراتب: الأجنبي الذي لا ينجح لأول مرة في الاختيار الدنيوي داخل الصالون لا يستحق تسامح مضيفيه، وسيلقى صعوبة كبيرة في الاهتداء مجدداً إلى هذه الأروقة؛ ذلك أن ظهوره عاجزاً عن تملك قواعد الدنيا والذوق يفقده الأهلية. إن أوروبا الأنوار عالم (كوزموس) متناسق منظم يتولى فيه الأخيار والصالحون (بتعبير اليونان القديمة) تثبيت قواعد الذوق السليم وتوجيه حياة الصالون. إنهم يستمدون قوتهم من إثبات كفاءتهم، بالوراثة، في توجيه التربية وإتقان آداب المعاشرة، أي الجمع الحاذق بين الموروث والمكتسب من مفاتيح «الثقافة الشرعية» (بيير بورديو). أما الذين يتملكهم الوهم في أنّ زمن النبيل البرجوازي قد اكتمل في القرن الثامن عشر فعليهم أن يتحملوا وحدهم وزر هذا الوهم. هكذا راح المتمول لا رينيير La Reynière يسعى إلى الانضمام إلى هذا العالم فاشترى فندقاً خاصاً في الشانزيليزيه «Champs-Élysées». إلا أنه، برفضه دخول الفيكونت (الشريف) دي ناربون (Vicomte de Narbonne) إلى صالونه، ارتكب خطأً في اللياقة، وتوقع أن يدخل مع الأرستقراطي الشاب في تحدٍّ كان هذا الأخير يفضل فيه سلاح الإهانة الرمزية على السيف في المبارزة؛ وحين نجح دي ناربون في تحقير المتمول، أثبت مهارته في فهم الأصول المتبعة في هذا «العالم» الجديد، فجسّد بالتالي التفاوت بينهما من حيث الموقع الاجتماعي، ما جعل المتمول لا يستحق المبارزة بالسيف لأنه ليس صديقاً موثوقاً.

استقطبت باريس، بلا منازعٍ، هذا الفضاء الدنيوي، جامعةً إشعاع الأنوار الأوروبية التي حلّت فيها فجعلتها محط الإعجاب، إلى ممثلي أرقى المجتمعات الكوزموبوليتية المقيمين بها أو المتعاقبين على الإقامة بها، استقطبت إلى عرض لهو وتسلية لا مثيل له. على هذه المكوِّنات الثلاثة نهض نجاح أوروبا الفرنسية التي كانت، وهو أمر مفهوم، بمثابة «أوروبا الأوروبية»، أي أوروبا «الدنيا»، أو لمزيدٍ من الجدية، أوروبا الأرستقراطية التي لم تكن باريس فيها عاصمة الذوق الفرنسية بمقدار ما كانت عاصمة أوروبية. مع انطلاقة الرحلات (مدروسة في الفصل الثاني) والثقافة المتنقلة، صار يكبر عدد الأجانب الراغبين في زيارة هذه الصالونات. إن جولة واسعة ناجحة من شأنها أن تبرر دخولاً مميَّزاً إلى هذا العالم وأن تحتفظ بعلامات التقدير: رسائل توصية وشفاعة ـ مختزلات الغيرية (أنطوان ليلتي) ـ هدايا، دعوات متجددة، وعود بارتباط ترسلي. إن الحضور في الصالونات يسهم، على غرار الزيارات إلى بيوت الأرستقراطيين وكبار شخصيات الأنوار ـ مع حفظ الثوابت: قد يتم الاكتفاء أحياناً بالأدوار الثانوية أو برجال المناطق من أهل جمهورية الآداب ـ يسهم في القيام بجولة أوروبية للتثقيف أو الترفيه أو المُسَّارَة (الاحتفال بعضوية منتسب جديد).

إن مملكة التقاليد والذوق الأوروبية موجودة في صالون مدام جوفران (Geoffrine)، في المسرح الأرستقراطي عند دوق أورليان، في حفلات الرقص والموسيقى بالهواية أو بالاكتتاب في القصر الملكي Palais-Royal، أو في تظاهرات البِرّ المنسقة بعناية ـ الشهامة تقتضي النظر، غير أن الجمهور الذي ينظر إلى أصحاب الشهامة ويسجل أهميتهم وأسماءهم وعدم اكتراثهم، عليه أيضاً، وهو ما تفرضه اللياقة، أن يبقى على مسافة معقولة. أما أهل

الأدب، الذين توفر لهم الصالونات الفرصة ليتعرفوا إلى الآخرين ويعرّفوهم بأنفسهم، وليحصلوا على حمايات أو رواتب، فعليهم أن يعرفوا «أن الموهبة الأولى بين المواهب في المجتمع هي القدرة على التكيف مع الجماعة؛ وحين يوجد كبار ذوو شأن لا يجوز إغفال الأصول التي ترعى التراتبية والمرؤوسية» (رسالة الماريشال ريشليو (Richelieu) إلى مدام فاڤار (Favart)). المغزى واضح: وهمُ المساواة الناظم للعلاقات الاجتماعية في المجال الدنيوي لا يلغي التفاوت في المواقع. أما ڤولتير، من جهته، فقد كتب إلى مدام دو ديفان (Deffand)، صاحبة أحد أكثر الصالونات الباريسية شهرةً: «على المرء أن يكون من أهل الدنيا مثل أن يكون من أهل الأدب. هذه فضيلة الرئيس هينولت (Hénault). لم يُعرف أنه عمل كراهب». مدام دو جانليس (de Genlis) وافقت الآخرين في الرأي: «على المرء من أهل الأدب أن يعيش في العالم (الدنيا) الأرحب: أن يخصص للمجتمع أربع ساعات في اليوم، فيبقى له كثير من الوقت للعمل والتأمل في ما سينتظره».

في هذا الحيّز من الاستقبال في الدنيا (العالم) التي هي الصالون، من غير المسموح أبداً زلة في الموقف أو خطأ في الذوقِ: التافه يؤكد ذلك بقوة، والمواقف المضحكة تجعل الموقف مملاً ومقرفاً؛ والحاجز مقفل، بحسب تعبير مدام جوفران، أمام الانتهازي الذي لم يعرف، منذ أول حضور له، أن يقدم نفسه سيداً على قواعد السلوك الدنيوي والتهذيب، وأن يبيِّن قدرته على الانخراط في نظام رمزي موجَّه بوهم المساواة ولغة الصداقة والبِرّ الخفي والعرفان. يقول شارل كولليه (Charles Collé)، وهو ذاته منتج كبير لأدب التسلية المثقف: إن البِرّ النزيه المتعالي الذي يستفيد منه رجل الآداب هو «تهذيب حمائي»؛ وهو ليس مجانياً، بل يفترض، على العكس، هبة مضادة: التعبير الخفي، لكن المكرر،

عن استبطان المعايير التي تدير الحيِّز الدنيوي. كذلك، على النساء اللواتي يتطلعن إلى مشاركة مستقلة في هذه الأطر الأدبية والدنيوية، أن يظهرن، قبل كل شيء، قبولهن المعايير: إليهن دور المضيفة؛ وإن حلمن بالكتابة، فالصنف الثانوي المعروف، النسائي، الذي يخصص لهن، هو أدب الترسل. ويل للواتي لم يفهمن ذلك، مثل مدام دي بوكاج (Mme du Bocage) ومدام دي بوهارنيه (Mme de Beauharnais). اللواتي يغرمن بالأدب ويبحثن عن اعتراف أدبي بهن يتحولن إلى هدف للسخرية والإهانات الرمزية المتكررة. بعد نزع أسلحة النقاد ودفع الشكوك فحسب يمكن للمرأة أن تخفف رويداً رويداً من قيودها «فتناقش المعايير»، وتنجح باستقلالية. هذا ما نجحت به جيداً مدام جوفران التي ينبغي التنويه بالاستراتيجية الهامة التي اتبعتها في إدارة التواصل، وهو ما أتاح لها خصوصاً، عام 1766، أن تغير بمهارة، أمام أعين المجتمع الباريسي، مجرى رحلة شقية نوعاً ما إلى بولونيا، إلى حضرة ستانيسلاس أوغوست بونياتوفسكي (Stanislas-Auguste Poniatowski)، الذي كانت ترغب في أن تكون مرشدته، فتحولها إلى جولة أوروبية ناجحة، حيث استقبلها على نحو خاص كل من الملكة - الإمبراطورة ماري - تيريز (Marie-Thérèse) وابنها جوزف الثاني (Joseph II) والأمير كونيتز (Kaunitz). ما وراء الصورة الفردية، هناك عالمية النموذج الباريسي الذي اعترف به مجتمع الأمراء في ڤيينا «Vienne» وفرصوفيا «Varsovie».

3 - نموذج فرنسي؟

إذا كانت باريس، خصوصاً عبر إشعاع صالوناتها، قد استقطبت المجال الأوروبي، فمن الواجب أيضاً التشديد على ميل المؤتمرات الدبلوماسية، منذ مباحثات أوترخت Utrecht ونهاية

حرب العرش الإسبانية (1713) وصولاً إلى العصر الذي يعنينا هنا، وميل المجالس والجمعيات الانتخابية الإمبراطورية: عام 1740 كانت فرانكفورت سورلومان «Francfort-sur-le-Main» تمثّل قلب مجتمع الأمراء الذين كان ممثلوهم يعيشون عيشة ترف وبذخ، ويحركون المسرح الدنيوي ويؤسسون محفلاً ماسونياً فرنكوفونياً اسمه الاتحاد l'Union. إن قدرة المدن المائية، مثل سبا Spa في البلاد المنخفضة النمساوية، على الجذب قدرة كبيرة جداً، إلى حد تكون فيه النشرات المحلية قد أذاعت لائحة بالأسماء الكبيرة التي تحضر في الفصل الحار. وهكذا تجري الصلة بين القرن السابع عشر ـ معاهدة وستفاليا للسلام عام 1648، والقرن التاسع عشر ـ الدبلوماسية المسماة مدن الماء. إن العواصم الأوروبية، وكذلك أيضاً المدن الأقل أهمية حيث يقيم الأمراء، أسهمت كلها في تعميم النماذج الثقافية والدنيوية والتربوية وفي اعتمادها ـ ماري دوروثي دو ساكس غوتا مشهورة بدراساتها التربوية. أما الوسطاء الثقافيون الفرنسيون، من العلماء والمهندسين والرسامين والفنانين والمدرّسين والمربيات والعسكريين والدبلوماسيين، الذين يجوبون أوروبا، فهم ينشطون الظاهرة ويوسعون مداها ويمضون بها إلى أبعد من المراكز. نجاحهم الفردي ليس له مثيل. تلك هي حالة الفلكي والخرائطي جوزف نيكولاس ديليسلي (Joseph-Nicolas Delisle) الذي بحث القيصر بطرس الأكبر أمر تجنيده خلال إقامته في باريس عام 1717، بهدف إقامة مرقب في بطرسبورغ. عندما أقام في روسيا عام 1725، تعهد تنفيذ المشروع الكبير القاضي بوضع خريطة عامة للإمبراطورية الروسية بناءً على تمنيات القيصر المتوفى. غير أن نزعته الكمالية وحالات التأخير المتتالية، والخصومة المتنامية من قِبل علماء ذوي أصل ألماني من الأكاديمية الملكية للعلوم حيال العالم الفرنسي،

دفعت السلطات إلى عزله عن إدارة أطلس روسيا عام 1740، وهو الأطلس الذي ظهر لاحقاً في العام 1745. كان ديليسلي قد طلب العودة إلى وطنه عام 1743 فلم يحصل على الموافقة إلا عام 1747. على صعيد آخر، إتيين موريس فالكونيه (Étienne - Maurice Falconet) (1716 ـ 1791) ذاق هو الآخر طعم الخيبة، وهو الدليل على أنَّ التقدم قد يبدو خادعاً. فمع أن فالكونيه تخلّد بالتمثال البرونزي الذي نحته لبطرس الأكبر، بناءً على طلب كاترين الثانية، التي وكلت إليه المهمة عام 1766، وبناءً على أمر من ديدرو، فقد أخذ يفقد تدريجياً كل حظوة لدى الملكة والشخص المفضل لديها إيڤان إيفانوڤيتش بيكي (Ivan Ivanovitch Beckij). من الوسطاء الثقافيين ضحايا «السراب الروسي» المربّون ـ المرشدون المكلفون تلقين الذوق الفرنسي للنبلاء الشبان. فقد كانوا يُعاملون غالباً كمجرد مستخدمين، فيعذّبهم كونهم يعملون في «مهنة الكلاب». صحيح أن أشكال الخداع متعددة: تلك حالة الوصيفة الباريسية التي تعرض كمربية في بولونيا أو روسيا، إلا أنهم، في جميع الأحوال، كانوا يتبعون أنماطاً ونماذج سرعان ما جرى اعتمادها وتعميمها ودمجها وأحياناً رفضها، ويشجعون المبادلات الثقافية على نطاق أوسع من الحلقات المحصورة لدى الأرستقراطية الأوروبية، فكانوا يؤثّرون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في أولئك الساعين إلى التقرب من مملكة الذوق والعادات الأوروبية الذين يقومون بعمليات دخول عابر وينجحون؛ ذلك أن الوسطاء كانوا يُستبدلون بأمثال لهم «قوميين» أو غير قوميين، صحافيين ومتعددي اهتمامات ومترجمين وتربويين أو صانعات قبعات. إنهم بذلك يثبتون الفرنسية كلغة أوروبية للأرستقراطية وكذلك للثقافة.

غير أن من الضروري التذكير ببدهيةٍ غالباً ما تكون منسيّةً، وليس من السهل تلقينها، وهي تطرح مشكلات حقيقية في التواصل مع الطلاب الذي يخضعون لدورات تثقيف. لودفيك هولبرغ (Ludvig Holberg) (1684 ـ 1754) الذي صار رمزاً أساسياً من رموز الأنوار الدانماركية شكا ذلك بمرارة حين أقام في باريس. عندما كان يعيش في برجن «Bergen» ـ وكانت النروج جزءاً من التاج الدانماركي ـ ليعطي دروساً في اللغة الفرنسية، اكتشف بفظاظة أنه يتكلم الفرنسية «كحصان ألماني»، ما أدى إلى عزله عن صالون الاستقبال. فيتورو ألفييري (Vittorio Alfieri)، من جهته، خلال جولة ثقافية طويلة قادته إلى فرنسا وإنكلترا والمقاطعات المتحدة (1766 ـ 1767) ثم إلى ألمانيا والنمسا وإسكنديناڤيا وروسيا وإسبانيا والبرتغال (1769 ـ 1772)، عانى من قلة تقديره الإيطالية، فقد قام بدراساته في الأكاديمية الملكية في تورينو حيث كانت الفرنسية حاضرة بقوة، ومن إتقانه الفرنسية بصورة معقولة. مع ذلك فهو يمثّل اليوم رمزاً للمبادلات الثقافية الإيطالية الفرنسية في القرن الثامن عشر: «مع رفاقي في السفر، يقول في كتابه «حياتي» Vie، كانت الأحاديث تتم بالفرنسية، وكذلك الأمر في بعض بيوت ميلانو حيث كنا نذهب معاً، كنا نتحدث أيضاً ودائماً بالفرنسية؛ لذلك فإن الأفكار القليلة التي تدور في خَلَدي وتتحرك في دماغي البائس كانت تلبس لبوساً فرنسياً؛ الرسائل القليلة التي كنت أكتبها كانت بالفرنسية؛ المذكرات القليلة التافهة التي خربشتها عن أسفاري كانت أيضاً بالفرنسية. كان ذلك يتمُّ كيفما كان من غير أن أعرف هذه اللغة اللعينة إلا بصورة عرضية، أو أن أذكر منها أية قاعدة».

يزداد التواصل صعوبةً مع تعدد اللهجات الإيطالية، وهو ما لم يقصّر المسافرون الأجانب في الإشارة إليه. في إيطاليا، لم يكن

الحاجز سياسياً فحسب بل هو أيضاً لغوي، إلى الحد الذي رأى فيه دوباتي (Dupaty)، ومن غير مبالغة، علامة تفوُّق فرنسي: «هذه اللغة ليس لها أبداً، بعدُ، وطن ولا منزل؛ إنها لغة تائهة وهي تتسول من كل الجهات، خصوصاً من فرنسا». مهما يكن من الأمر، كان مفهوماً أن القضية اللغوية صارت، منذ القرن الثامن عشر، في قلب السجال حول توكيد هوية وثقافة قوميتين. (انظر الفصل الرابع).

الفصل الثاني

أوروبا التنوير:
فسحة الانتقال والتبادل

فضاء أوروبا للإعلام كان حقيقةً واقعةً في القرن الثامن عشر، فهو استخدم وسائل اتصال متنوعة تضاهي وتكمل بعضها بعضاً، وحشد عشرات من المحترفين ومن العاملين بانتظام أو بصورة متقطعة في حقل الإعلام، ومن الموزعين والمترصدين؛ ورعى ونمّى استراتيجيات مراقبة وتوجيه ـ أو تضليل ـ للإعلام من قِبل الدول و«المكاتب» الوزارية، الموحدة بروابط معقدة وعلاقات متناقضة. بين أطرٍ سرية وأخرى دعائية، بين قانون السوق وقانون الأمير نهضت بُنية بكاملها.

I ـ الصحافة الدورية

1 ـ الجرائد والصحف اليومية

عام 1804 راح الصحافي والفيلسوف الالماني أوغست لودفيغ ڤون شلوزر (August Ludwig von Schlözer) يذكّر بالدور البارز الذي أدّته الصحف والجرائد في خلق فسحة أوروبية للإعلام في القرن

الثامن عشر: «الصحف هي إحدى أكبر وسائل الثقافة، وبفضلها وصلنا، نحن الأوروبيين، إلى ما وصلنا إليه». قبل ذلك بقرن كتب عالم اللغة الهولندي جيسبير كوبر (Gisbert Cuper) إلى الكاهن بينيون (Bignon): «يمكن أن نسمّي هذا العصر عصر الصحف». المؤرخون المعاصرون يذكرون، في معرض استعادتهم شهادات من سبقوا، أن انطلاقة الجرائد، في نظر جيريمي د. بوبكين (Jeremy D. Popkin) شكّلت «ظاهرة أوروبية جامعة».

الجريدة (بالفرنسية gazette، بالإنكليزية newspaper، بالألمانية zeitung) تعني نشرة دورية، نصف أسبوعية غالباً. بدأت بحجم نصف طلحية ثم أخذت تتطور ما وراء المانش بدءاً من عام 1750؛ وكانت مخصّصة للإعلام السياسي الدولي. تتميَّز الجريدة (غازيت) إذن عن الدورية (بالفرنسية journal، بالإنكليزية periodical) المكرَّسة للأخبار الأدبية بالمعنى الواسع، وإن شهدت تطوراً وتبدلاً في إخراجها. وهكذا، ففي فرنسا تتميَّز الجريدة (غازيت) التي أسسها تيوفراست رينودوت (Théophraste Renaudot) وصار اسمها غازيت فرنسا عام 1762، عن «صحيفة العلماء» التي تتولى الاهتمام «بالجديد» في عالم المكتبات. في دوقية الجسرين، وهي منطقة ثقافية جامعة حقاً تقع بين مملكة فرنسا والمدى الألماني، كانت مؤسسة واحدة تتولى نشر جريدة إخبارية سياسية اسمها غازيت الجسرين (1770 ـ 1777 و1783 ـ 1798)، وكذلك الصحيفة الأدبية، الغازيت الأدبية الشاملة بين 1770 و1777؛ يمكن إذن أن تكون أسماء الدوريات مصدر التباس وتشوش.

في فرنسا، كانت جريدة الغازيت، التي كانت تطبع 12000 نسخة خلال حرب الاستقلال الأميركية (1776 ـ 1783)، تسهم في عبادة شخصية الملك وتعطي الأولوية للأخبار الصادرة عن

القصور الأوروبية على سواها من أخبار المجتمع. ولئن كانت، في زمن الحرب، تثمن دور الجيوش الملكية، فهي، في زمن السلم فقيرة بأخبارها الفرنسية: بعض أصداء، مراقبة بشدة ومخففة، عن حياة القصر، وتقارير رسمية ومباريات أكاديمية، إلخ. عبر تعديلات ذات مغزى طالت وجود هذا المدى الأوروبي في الإعلام خلال القرن الثامن عشر، كان في مقدور القارئ الفرنسي الاطّلاع على الجديد في أخبار المجتمع، لكن من خلال الصحف الفرنكوفونية الصادرة في الخارج.

في مجال الصحافة كانت صحيفة العلماء هي الأخرى مؤسسة فعلية تعرض لأهم المؤلفات الصادرة في فرنسا وخارجها. وكان إعلامها متزناً يحاذر الدخول في السجالات الفكرية الكبرى التي تعصف في حقل الفلسفة، ويعطي الأولوية للعلوم والفنون (40٪ من الصحيفة في منتصف القرن)، على التاريخ (29٪). كانت تصدر منها نسخ مقلّدة عديدة، وبفضل هذه النسخ، على ما يقول بيير بايل، كانت تنتشر في أوروبا: «لو لم تكن تطبع في هولندا صحيفة العلماء الصادرة في فرنسا لظلت مغمورة مجهولة إلى الأبد في كل مكتبات الشمال وألمانيا». أما جريدة مركور غالان Mercure Galant التي صار اسمها مركور دي فرانس Mercure de France عام 1724 فكانت تنشر الطرائق الدنيوية والأخبار الأدبية بأسلوب رشيق. لقد كانت الصحف في الغالب دوريات شهرية بحجم قريب من حجم الكتب.

2 ـ الجرائد الأوروبية باللغة الفرنسية

أدى تطور الفرنسية كلغة تواصل أوروبي، ووجود صحافيين من البروتستانتيين الفرنسيين اللاجئين خارج بلادهم،

وحجم الرقابة على الصحف في فرنسا، إلى ظهور عدد من الصحف الأوروبية باللغة الفرنسية؛ فعلى منوال جريدة العلماء ظهرت في هولندا صحيفة أخبار جمهورية الآداب (1698 ـ 1714) لصاحبها بيير بايل؛ وانتشرت كذلك على حدود المملكة، خصوصاً في المقاطعات المتحدة (أمستردام، ليدي «Leyde»، روتردام «Rotterdam»، أوترخت)، وفي البلاد النمساوية المنخفضة (بروكسِل ومقاطعة لِييج «Liège»)، وفي أفينيون وفرانكفورت (سور لومان أو كولونيا)؛ وكانت تدخل بصورة شرعية إلى فرنسا بالبريد، بما في ذلك أيام الحرب: تحت حكم لويس الرابع عشر، كان لوفوا (Louvois) سكرتير الدولة لشؤون الحرب والمراقب العام للبريد، يدافع عن احتكاره الخدمات البريدية (كانت مصدر عائدات كبير)، وعن حرية تنقل النشرات الصحافية. هذا الانفتاح الفرنسي على المنافسة الخارجية أمّن لهذه الدوريات سوقاً مهمة حتى لو ظلَّ الحصول على هذه الجرائد محدوداً، خصوصاً في المقاطعات، وذلك بسبب تكاليف النقل الباهظة. على سبيل المثل، خلال عام 1740 وما بعدها كانت تباع الأعداد السنوية من غازيت أَمستردام بما بين 21 و24 ليرة للناشر الهولندي، ثم يعاد بيعها بالبريد المستفيد من الاحتكار، خلافاً لما هي عليه الحال في إنكلترا، إلى المكتبات الباريسية بأربعة أضعاف سعرها، ثم تبيعه المكتبات بسعر 104 ليرات. أما قراء المناطق البعيدة فعليهم أيضاً أن يضيفوا الضريبة البريدية بدءاً من باريس. غير أن جريدة كورييه دافينيون Courrier d’Avignon كانت الأولى التي وقّعت مع البريد عقد اشتراك تنخفض بموجبه الضريبة البريدية حتى فلس واحد على النسخة يدفع في أفينيون عند إرسال الجريدة، أياً تكن الوجهة التي يرسل العدد إليها. بذلك يغدو ممكناً الاشتراك في أقل من عشرين ليرة خالصة التكاليف. بعد

عقدين من الزمن استفادت الجرائد الأجنبية باللغة الفرنسية، بدورها، من التسعيرات البريدية التفاضلية التي تسمح بتخفيض الاشتراك إلى أقل من أربعين ليرة. بهذا المعنى يمكن الحديث عن ثورة حقيقية في التسعيرات البريدية. على خط موازٍ تسارعت عمليات فتح الحدود، وبفعل التنافس أمكن لجريدة غازيت دو فرانس التي قلّدت جريدة كورييه دافينيون، أن تضاعف عدد مرات صدورها، عام 1762، ثم صارت تخضع لرقابة الشؤون الخارجية. لقد دلَّ هذا التبدل على أن الحيّز الإعلامي صار أوروبياً وتنافسياً، حيث تتقاطع فيه العمليات التجارية والسياسية (نشوء تدريجي للرأي العام) والدبلوماسية. وأدى تنوع التسعيرات البريدية المطبّقة إلى إتاحة الفرصة أيضاً لممارسة الضغط على أية نشرة يُحكم عليها بأنها غير ملائمة. في دوقية الجسرين، شكا لو تلليه (Le Tellier) التسعيرات البريدية التي كانت تشكّل أكثر من ربع قيمة الاشتراك في جريدته الأدبية، وطالب بشروط تعادل تلك التي تستفيد منها جريدة كورييه دو لوروب Courrier de l'Europe (لندن) وجريدة الأنال Annales (الحوليات) السياسية والمدنية والأدبية التي يصدرها لانغيه (Linguet). كما أدى تطور إعادة طباعة الجريدة في المناطق وكذلك طبعها بنسخ مقلدة إلى تخفيض تكاليف الحصول على الخبر.

لئن كان انفتاح المملكة الفرنسية على الجرائد الأجنبية يمكن أن يثير الدهشة، خصوصاً حين يكون صحافيوها من البروتستانت الفرنسيين في المنفى، فقد دفع هذا الانفتاح أيضاً الصحف إلى إثبات الاعتدال في خطها التوجيهي، بل إلى ممارستها الرقابة الذاتية: يتعلق الأمر بعدم إثارة السلطات الفرنسية، وبتفادي مصادرة أعداد منها ـ لأن ذلك مصدر خسائر مالية هامة

ومباشرة في قطاع ناشئ ـ بل تفادي منعها من الصدور. فضلاً عن ذلك، كان الوزراء ومكاتبهم قراءً مهتمين بهذه الجرائد، وسرعان ما كانوا مستعدين للاحتجاج أمام السلطات الأوروبية التي تُؤويها إذا ما بدا لهم قلم لاذع. في المقاطعات المتحدة كانت عناوين الصحف التي يصدرها جان روسيه دو ميسي (Jean Rousset de Missy) مستهدفة على نحو خاص (كان هو ممونّاً نشيطاً يزود الصحف بالأخبار وكان موزعوها موضع رقابة دائمة). لم تكن قلة ثقة الكونت دو ڤرجين (Comte de Vergennes)، وزير الشؤون الخارجية في قصر لويس الرابع عشر، بالدوريات الصادرة في دوقية الجسرين، مستندة إلى فراغ في تعامله القليل الإيجابية معها. وحين سئل عن الأمر أجاب الوزير «بأن الجرائد الأجنبية تضر بتلك التي تطبع في فرنسا، خصوصاً ما يصدر في دوقية الجسرين التي تتحدث بحرية مفرطة عن الإدارة، وإذا ما استمرَّ ذلك فسيكون مجبراً على تعطيلها، أو الأحرى على منع دخولها إلى فرنسا».

شكّل الاطّلاع على الجرائد وعلى مصادر الأخبار الأخرى إحدى المهام الرئيسية للدبلوماسيين العاملين في الخارج، الذين كان عليهم أن يبعثوا إلى باريس وڤرساي عرضاً شاملاً عنها. إلى جانب الجرائد كانت صحف سياسية عديدة بالفرنسية تحلل اليوميات الدبلوماسية والعسكرية، وبالتحديد لو مركور التاريخية والسياسية الصادرة في لاهاي (1686 ـ 1782)، لا كليف La Clef التابعة لديوان أمراء أوروبا، التي صارت الجريدة التاريخية عن قضايا الزمن (ڤردان، لوكسمبورغ، باريس، (1704 ـ 1776)، وكذلك جريدة الجرائد أو الجريدة السياسية التي كانت تطبع في المقاطعة الكهنوتية في لِييج ثم في مقاطعة بويون «Bouillon» (1764 ـ 1793).

في ظل هذه الظروف ليس ما يدهش في أن تسعى الإدارات أيضاً إلى توجيه الإعلام، بل إلى صناعته. وهكذا، ففي أوقات الحرب، كانت الرسائل المبعوثة من قِبل الضباط العاملين على الجبهات والمنشورة في الجرائد، في غالب الأحيان، عبارة عن تقارير مزيفة موجّهة للتأثير على طريقة النظر إلى الصراع وإلى سير المعارك. إن وجود الجمل المكررة مطبوعة في جريدتَي غازيت ومركور واستعادتها في بعض الأخبار المباشرة أمر تتميّز به حركة انتقال الخبر بين الصحافة العلنية وغموض الإعلام السري، وهو ما يدل أيضاً على التشوُّش الفاصل بين الإعلام والتضليل.

لم تكن السلطات الأوروبية تسعى إلى جعل انتشار الدوريات اللاذعة النقد محصوراً فحسب في أماكن صدورها، بل سعت أيضاً إلى جعل المحررين يعملون لصالحها لا لصالح الدوريات. هذا ما نجح في تنفيذه بومارشِه (Beaumarchais)؛ صاحب المهمات السرية المعروفة في لندن، من خلال جريدة كورييه دو لوروب: منع طباعة نشرة هجائية ضد الملك لويس الخامس عشر وزوجته مدام دي باري (du Barry)، تأمين أسلحة للثوار الأميركيين قبل أن تكون فرنسا قد دخلت الحرب إلى جانبهم. فقد كانت هذه الدورية محظورة في فرنسا منذ أعدادها الأولى، وقد تمكّن بومارشِه (Beaumarchais)، لقاء مبالغ هامة، من تبديل موقف الجريدة لكي تتبنى دعم المصالح الفرنسية، وصار من المنطقي عندئذٍ أن تستفيد من التسعيرات البريدية التفاضلية.

أدت انطلاقة الجرائد والصحف الأوروبية باللغة الفرنسية إلى نشوء شبكة اتصالات كثيفة ومتفاوتة النوعية على الساحة الأوروبية بين المصادر الإخبارية، دوريات ومراسلين. وهكذا فقد كانت غازيت مقاطعة الجسرين، (دو بون «Deux-Ponts»)، تستمد

أخبارها الإنكليزية من لندن أفننغ بوست London Evening Post ومورننغ بوست Morning Post وكورييه دو لوروب، وأخبار أوروبا الجنوبية من غازيت دو مدريد Gazette de Madrid وكورييه دافينيون، ومن غازيت دو فرانس، وكذلك من خلال «المراسلين السياسيين» في باريس وبوردو وبرست «Brest» ودنكرك «Dunkerque» وكالي «Calais» أو بولونيا سورمير -Boulogne-sur» «Mer الذين كانوا يبعثون عشر رسائل أسبوعياً كمعدل وسطي. إن صحيفة الدوقية الأدبية تستمد أخبارها الإنكليزية في مونثلي ريفيو Monthly Review وكريتكال ريفيو Critical Review، في حين كانت تتلقى من باريس ثلاث رسائل أسبوعياً عن الأخبار الأدبية. أما عن ألمانيا وأوروبا الشمالية فقد كانت تعتمد على مصدر مهم، شكّل مجرد وجوده شاهداً على ظهور حيّز أوروبي للإعلام، هو شبكة المخبرين والمراسلين التابعة لنيكولاس هياسنت بارادي (Nicolas Hyacinthe Paradis) في فرانكفورت، مؤسس الجمعية الوطنية في هس هامبورغ عام 1775، وهي «مزيج من أكاديمية دولية ومكتب إعلام وتحرير صحافي، بمئات الأعضاء ودزينة من الفروع من بينها فرع في باريس جوهان شولوباخ (Jochen Schlobach). كان الأمير الألماني في هس ـ هامبورغ معروفاً بانتمائه إلى الأنوار ورفضه الرقابة.

3 ـ الصحافة البريطانية

مثّلت إنكلترا هانوفر، منذ عام 1714، حالة مختلفة. وإذا كان البرلمان الإنكليزي قد عارض على الدوام عرض مداولاته وتحليلها في الصحف والدوريات، فإن هذه الأخيرة تحررت من الإذن المسبق ومن الرقابة منذ تعليق العمل بمرسوم ليسنغ عام 1694

(Licensing Act). في المقابل، أدى فرض ضريبة الطابع «Stamp Act» عليها بدءاً من العام 1712 إلى زيادة كبيرة في كُلَف طباعتها، وساعد، في الوقت ذاته، على نمو الدوريات الأسبوعية المطبوعة على ورقة ونصف الورقة (ست صفحات)، وذلك بغية اختزال ثمن الطابع. كما أدت حدة المواجهات السياسية بين الليبراليين والمحافظين إلى تكاثر عدد الصحف؛ فإلى جانب الدوريات التي تؤمّن لقرائها مقالات عميقة ذات موضوعات سياسية في الغالب مثل ويكلي جورنال أو كرافتسمان (Craftsman)، تكاثرت الصحف اليومية منذ عام 1720: ديلي بوست Daily Post (1719 ـ 1746)، ديلي جورنال Daily Journal (1720 ـ 1742)... إلا أن إنكلترا بدأت، منذ بداية القرن الثامن عشر، تؤثّر على القادة من خلال دوريات ذات نبرة خاصة جداً، طالبت بإقامة حوار حقيقي مع القارئ المدفوع إلى اتخاذ موقف والتصرف على أساسه. ينجم عن ذلك طريقة في النظر إلى الصحيفة وعفوية وحرية نبرة ولغة كلها بعيدة عما هو سائد في «صحف» القارَّة تقليدياً. يصح ذلك بشكل خاص على تاتلر Tatler بين عامي (1709 ـ 1711)، (كانت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع)، وسبكتاتور Spectator اليومية بين عامي (1711 ـ 1712)؛ ولقد كان نجاحهما كبيراً، عززته الترجمات إلى الفرنسية والنسخ العديدة المقلدة (عدة مئات على مدار العصر في إنكلترا وألمانيا وفرنسا). نذكر فحسب لاسبكتاتريس دانواز La Spectatrice Danoise للبروتستانتي الفرنسي المنفي جان آنجليفييل (Jean Angliviel) واسمها لا بوميل La Beaumelle (1726 ـ 1773)؛ سبكتاتور فرانسيه Spectateur Français لماريفو (Marivaux)؛ إلبنسادور El Pensador وإلسانسور El Censor في إسبانيا.

في النصف الثاني من القرن جمعت الصحافة اليومية الإنكليزية بين الأخبار والإعلانات، في حين ظلَّ الفصل بينهما هو القاعدة العامة حتى عام 1770: الملصقات للإعلان والصحف للأخبار. أدى نجاح نموذج أنتلليجانسبلاثر (Intelligenzblätter) في الساحة الألمانية إلى الإسراع في تقليده (أكثر من 200 عنوان خلال القرن الثامن عشر). وشهدت ملصقات باريس، مقرونة بجريدة غازيت دو فرانس نجاحاً كبيراً منذ انطلاقتها عام 1745. بعد ذلك صار التمايز أقل وضوحاً: أخذت تظهر الأخبار على الملصقات التي صار ترتيب صفحاتها والزوايا فيها أكثر إتقاناً، ومحتوى الكتابة أكثر أهمية. وقد غدا هذا التطور، عن طريق التقليد، أمراً ملحوظاً على امتداد القارة.

II ـ الأخبار بخط اليد

1 ـ الإخبار السري والمتشرد الأدبي

كتب مؤلف كتاب حروف باريس المكشوفة (باريس، العام الثاني)، في فصل بعنوان «من الحروف، إلى الأخبار اليدوية»، قائلاً: «إن شعباً راغباً في أن يتثقف لا يكتفي بغازيت دو فرانس». الحقيقة أن التعطش إلى أخبار متقاطعة أو متطابقة، متحررة من سيطرة رقابة الأمير أفضى إلى ظهور «الأخبار بخط اليد». إن المشروع المجهض المتعلق بالخبر اليدوي يمثّل، بطريقة معبّرة، أهم وجوه المنفعة في هذا التواصل المخطوط:

«هذه الأخبار المخطوطة المتضمنة في صفحات أربع تحتوي على ثلاثة أشياء جديرة بشد اهتمام الجمهور.

«يدور الأول حول الشؤون السياسية وسواها المتعلقة

بالحكومة في كل دول أوروبا، حيث تغدو الأحداث الأكثر سرية مفضوحة فيها، وفيها نكتشف الدوافع الخفية التي يستخدمها الكثير من الأمراء لبلوغ غايتهم؛ هذه المقالة ستكتب بطريقة لا تمتّ بصلة إلى الجرائد، ويجري تفصيل الحقيقة الفظة التي لا تأخذ بالاعتبار إلاّ الاحترام الواجب لأصحاب التيجان.

«الثاني: يحتوي الطرائف الشائعة والمغامرات الفريدة والأحداث المسلية والعشاءات السرية لدى ظرفاء باريس، والروايات التافهة والحكايات وآخر النكات.

«الثالث: أدبي محض، يضم الأخبار المسرحية والمقطوعات الشعرية غير المنشورة أبداً؛ الابتكار هو الفائدة الأولى من هذه الترهات الظريفة».

عند المقارنة بين الجرائد والصحف من جهة والأخبار المخطوطة من جهة أخرى، تنبغي الإشارة إلى أن المقصود بالأمر هو وسائل إعلام إضافية تغتذي من بعضها ويتأثّر بعضها ببعض. زد على ذلك بعض الأوراق المجازة، أي التي تحتملها الشرطة، تصلح كملحق للمشتركين في الدوريات المطبوعة، - يجري الكلام على أوراق مرفقة بدبوس. إنها تمثّل، في نظر مديري الجرائد مصدر عائدات مهمة والوسيلة لتعويد القراء عليها في كليف «Cléves»، المقاطعة البروسية، كان مدير جريدة كورييه دو بارين Courrier du Bas-Rhin، جان مانزون (Jean Manzon)، يبيع أخباره اليدوية في بولونيا، وكان ناشر الجريدة، من جهته يجمع اشتراكات «لمراسلات مترا Mettra السرية».

مع الأخبار المخطوطة يدخل المرء إلى العوالم السحيقة الرمادية للتشرد الأدبي روبير دارنتون (Robert Darnton). كتّاب متنوعو الاهتمامات وصحافيون يموّلون، وهم لا يملكون شيئاً،

هذه الموجة من التواصل المخطوط، ساعين من خلاله، في الوقت ذاته، إلى الحصول على عائدات إضافية. إنهم يروون، يفضحون، يرتبون فضائح القصر والمدينة والحكومات والمضاجع ويضخمونها. يزعمون أنهم يكشفون سر ديوان الأمراء أمام مشتركيهم. الحقيقة، أن الأمر يتعلق غالباً بأدلة دعائية - بالرغم من الحميمية المعلنة لهذه الأخبار المخطوطة، التي تذكّر بسرية رسائل الإعلام المالي أو الجيوستراتيجي المعاصرة - لتبرير التسعيرات المرتفعة للاشتراكات والنشرات الجزئية التي يفترض، في المقابل، أن تؤكد صحة الأخبار المبثوثة. المصدر الصالح ثمنه باهظ. إذا وافق المشترك على شرائه بسعر غالٍ فذلك يعني أنه يحظى بثقته. إذ ذاك يمكن أن ينتظم قراء آخرون، من المشتركين أو متلقي الأخبار، بفعل جاذبية الخبر، في صفوف الانتظار لتقاسم أسرار الأمراء أو لرفع قيمة خبر يدعى أنه حصري. على المخبر بخط اليد أن يكون إذن محاطاً بالأسرار وستائر دخانية؛ إن الغرابة مبرر للشراء على هذا الصعيد، وعلى المخبر أن يظهر، والحالة هذه، مؤتمناً على أسرار الأقوياء ومفشياً.

2 ـ الجرائد والدبلوماسية

تنهل الجرائد الفرنسية في الخارج، بصورة منتظمة، من مصادر الأخبار المخطوطة هذه، وتستهلك منها على نطاق واسع، لعدم ثقتها غريزياً بالأخبار المُسرّبة من مكاتب فرساي وباريس. في المقابل، لا تجيز لنفسها أن تعدل في صيغة الأخبار حتى لا تؤلب عليها أهل القصر فيحظر دخولها إلى السوق الفرنسي. منذ القرن السابع عشر كان الملوك ووزراؤهم، هم أيضاً، قراء يهتمون بهذه النشرات، ويرعون شبكة كثيفة من المخبرين الذين تُستخدم

أخبارهم كمواد وتوليفات ـ «المراسلات السرية» لكولبير دوتورسي (Colbert de Torcy) خلال السنوات الأخيرة من حكم لويس الرابع عشر (Louis XIV) والسنوات الأولى من عهد وصاية دوق أورليان ـ تغذي بدورها شبكات الأخبار السرية أو الرسمية. (هذه الأخبار أقرب إلى التقميش والانتحال من نشرات أخرى منها إلى التقارير الأصلية والملاحظة المباشرة). يغدو مفهوماً عندئذٍ أنه يستحيل في الغالب تحديد هوية المصدر أو تعديل الخبر وأن الحدود الفاصلة بين الإعلام والتضليل واهية جداً، وأن الأخبار المخطوطة كانت تلفق المعلومات في المكاتب على غرار الجرائد. ففي باريس، عام 1730 كان هيرولت (Hérault) الملازم في الشرطة يستخدم كاتبي النشرات لإعلامه الخاص ولتوجيه الرأي العام، فكان ينظم مثلاً الإفشاء والتسريبات ليضع ماسونيي العاصمة في مأزق ويسيء إلى سمعتهم فيدفعهم حينئذٍ إلى الانتظام ونشدان اعتراف الأمير بهم. خلال حرب العرش النمساوي (1740 ـ 1748)، كان لوفيل (Leffilles)، أحد عملاء الشؤون الخارجية، يزود محرر جريدة الغازيت بالأخبار العسكرية في إيطاليا، انطلاقاً من غاليري دو لوڤر (Galeries du Louvre). الوزراء كان لهم أيضاً مخبرون تحت تصرفهم، لأنه ليس في إمكانهم أن يتركوا حيّزاً بأكمله من إنتاج ونشر الخبر الموجّه إلى النخب ينمو ويتطور خارج أية رقابة (النخب على مختلف الأصعدة، من ذوي الشأن في المقاطعات، مثل برتان دو روشري (Bertin du Rocheret)، رئيس انتخابات إبيرناي Épernay، ومموِّن الشامبانيا للأعيان والنبلاء ممن يسهرون على مصير الجماعة الماسونية في فرنسا، بدءاً من عام 1730، إلى ممثلي الأرستقراطية الأوروبية. إن نشر الخبر وتوظيفه في قناة الاتصال المخطوطة لا يعني فحسب الوزراء ومكاتبهم بل كذلك الأسماء الكبرى في

الأنوار الأوروبية، وفي مقدمتها ڤولتير، الذي استوعب اللعبة في صورة تامة. منذ عهد فيرني (Ferney) كان محيطه ينشط الشبكات والشبكات المناوبة لتزويد مختلف شبكات الأخبار بمقتطفات من المراسلات والمستجدات التي تكون إما موقَّعة من كبير المؤسسة أو منسوبة إليه، أو أنه يدفع كل مسؤولية له عنها. رغم تشوش المسارات أطلقت بالونات الاختبار وجهزت الحملات الموجهة إلى الرأي العام وكميات الكتب المطبوعة.

3 ـ الخبر السياسي والرسالة الأدبية

في هذا الحقل «غير المنتظم» من الاتصال المخطوط، كانت تتعايش «أخبار بخط اليد» سياسية، يعوض عدد نسخها المرتفع مع كل إصدار تعويضاً جزئياً قيمة الاشتراك المتواضعة نسبياً، والأخبار اليدوية الأخرى الفضائحية الأكثر كلفة وسرية التي كانت تسمى «الأوراق الخاصة». كانت صحافة الفضيحة محصورة في جمهور مختار ـ كازانوڤا (Casanova) من بين هواته ـ مكوّن من أفراد ينعتون بالفضائحيين أو من القريبين منهم. إن «المراسلات الأدبية»، التي اشتهرت من بينها جريدة Correspondance Littéraire لغريم وميستر (Grimm et Meister) (1754 ـ 1813)، تكاد تشبه الأوراق الخاصة من حيث السرية والعدد القليل من الاشتراكات والتسعيرة الباهظة. لا يكتفي كتابها بتقارير عن الأخبار الأدبية ـ طالما أن الصحف تتولى الأمر بكلفة أقل ـ وبأصداء الحياة الدنيوية وأمجادها وضحاياها. إنهم عاملون أصيلون في الاستعلام ثقافياً وفنياً ودبلوماسياً وسياسياً ـ غريم مثال نموذجي منهم ـ لمصلحة مشتركيهم من الفرنسيين والأجانب. إن مترا الأب، الذي كان ابنه أحد أشهر محرري الأخبار مع نهاية النظام القديم من خلال

«تقارير فرساي» أو «مراسلة سياسية سرية»، هو بالتالي، عميل ومراسل أدبي لفردريك الثاني من بروسيا، في حين كان غريم يعمل لمصلحة غريمته كاترين الثانية من روسيا. يقول فرنسوا مورو (François Moureau): «إن فريدريك ملشيور غريم (Frédéric-Melchior Grimm) هو مبتكر هذا المزج بين الدبلوماسي و«المخبر»، بين الصحافي والمتطفل». يبعث المراسلون والناشطون الأدبيون إلى مشتركيهم المستجدات الأدبية ويلبّون طلباتهم مع صناع الفن والفنانين في العاصمة الفرنسية، يكشفون عن المواهب والمخبرين المحتملين. في سلسلة الأخبار الموجّهة من قِبل البارون ڤون بودن (von Boden)، الدبلوماسي والمخبر في باريس، إلى أمير هس - كاسل (Hesse-Cassel)، نقرأ بالتحديد، بتاريخ الثاني من حزيران 1779 ما يلي: «بين الكمية الكبيرة من الكتب الصادرة التي أمرني صاحب السمو أن أبعث له منها ما أراه مناسباً، لم يقع اختياري على أي منها. إن م. دالومبير (M. d'Alembert)، بشكل خاص، أخذ على عاتقه، بكل تلطف، أن يخبرني عن أي كتاب جيد، لحظة صدوره، ولن أتأخر عن إيصاله إلى سموكم فوراً».

إنها طريقة تبيّن أن المخبر السمسار يستعلم من أفضل المصادر لكي يخدم مشتركه على أحسن صورة. هو مخبر وكذلك هو ناقد أدبي: «فونتينبلو (Fontainebleau). في النهاية، يتم بالسر، حتى في أروقة القصر، كتاب هلفتيوس (M. Helvétius)، المطبوع بعد وفاته، وعنوانه، عن الإنسان أو الإنسان المثقف. يزعم العارفون أنه، إلى حد ما، لا يوازي كتابه، عن العقل. الأحكام حول هذا الكاتب تتوافق طوعاً بصدد الاقتناع بأن القراءة لا تجوز إذا كانت للتسلية. هؤلاء العارفون ينظرون جزئياً إلى هذه الأعمال الفلسفية كمؤلفات ڤولتير التي ليست سوى ألعاب نارية، مع أنها تتلألأ بأفكار لطيفة وخواطر لامعة».

في بعض الأحيان لا تُستخدم نشرة المخبر إلاّ كوسيلة للمحافظة على علاقة منتظمة مع المشترك بغية صون الذكرى معه والاستمرار بتقديم الخدمات إليه. من ناحية أخرى، يتحدث غريم عن «حانوتي»، «الفرع التجاري» من رسائله الأدبية. هذه الخدمات، التي ليس لها من الملحقات إلا النعت، تبرر إذن الكلفة المرتفعة للاشتراكات. ينبغي، في المقابل، إقناع المشترك بالمزية الحصرية للأخبار التي يتسلمها، حتى لو كانت، بشكل أساسي، من الإعلام الشائع لا من الإعلام السري في «الرسائل الخاصة». على المراسل أن يحافظ على وهمه بالقيمة الفريدة لمصدره ولأخباره طالباً، بإلحاح، من مشتركه أكبر مستوى من السرية في علاقتهما وفي مضمون الاتصال المخطوط القائم بينهما. وعلى المشترك أن يعتقد أنه الوحيد الذي يتلقى خبراً حصرياً، بالتالي، عليه أن يدفع. مراسلة غريم الأدبية التي أدارها بين عام (1753 ـ 1773) كانت نصف شهرية، موجهة إلى خمسة عشر من مشتركيه، بمبلغ وسطي قيمته 2000 ليرة للاشتراك سنوياً.

4 ـ الأمراء والوسطاء الثقافيون

غير أن هؤلاء القراء الميسورين، من جانبهم، أكثروا من الاشتراكات في الأخبار المخطوطة والأوراق الخاصة والجرائد والصحف، وكانوا يستفيدون، في الوقت ذاته، من التقارير الدبلوماسية. وهكذا فإن الأمير إرنست، أمير ساكس ـ غوتا ـ ألتنبورغ (المقاطعة ـ الدوقية، التي كانت حياة القصر فيها متلألئة على إيقاع آخر أخبار الموضة الباريسية، كانت تمول بتأمين حاميات عسكرية إلى أهم الدول الألمانية) كان يضع نشرة غريم، المراسلة الأدبية إزاء رسالة مترا.

على الصعيد الأوروبي كان سوق المراسلات الأدبية لا يثير اهتمام الملوك القادة الأساسيين فحسب بل عدداً أوسع بكثير من صغار الأمراء الألمان، ممثلي فسيفساء الدويلات الصغيرة في الإمبراطورية، المعجبين كثيراً بالإشعاع الفرنسي الفني والثقافي والمفتونين بباريس وڤرساي، بالقصر وبالمدينة؛ كانوا يفوقون الملوك الأرفع شأناً منهم رغبةً واهتماماً بالاستعلام عن الموضة والناس من المصدر، لكي يفرضوا ذلك على أندادهم ويفصحوا عن مزاعمهم في تعميم الأنوار والذوق الفرنسي المرهف على الساحة الجرمانية. وإذا لم يكونوا يملكون وسائل التمايز بعضهم عن بعض على صعيد العديد العسكري أو صراعات النفوذ الدبلوماسية، فقد كانوا، من ناحية أخرى، منخرطين في تنافس حقيقي على الصعيدين الثقافي والفني. فهم الذين قلدوا ڤرساي بوسائلهم، ونادوا بحياة في القصر على الطريقة الفرنسية واقتنوا في بيوتهم مقتنيات المجتمع الباريسي.

مَثَل الدوق كريستيان الرابع (Christian IV)، دوق الجسرين، معبّر جداً. اشترك منذ 1769 في مراسلات غريم وأقام علاقة ممتازة مع ديدرو، وكان يقيم عدة أشهر سنوياً في باريس داخل فندق خاص وفي قصر ڤرساي حيث كان له مسكن. تزوج زواجاً غير متكافئ بممثلة فرنسية منحها لويس الخامس عشر لقب كونتيسة فورباخ (Forbach)؛ لم يكن فحسب داعماً مخلصاً للدبلوماسية الفرنسية في ألمانيا الجنوبية وألمانيا الرينانية (نسبة إلى ريناني وستفاليا) - قاتل جنود مقاطعة الجسرين إلى جانب الفرنسيين في حرب السنوات السبع - بل أسهم في تطوير التبادل الثقافي والفني مع فرنسا. وقد اجتذبت كونتيسة فورباخ العديد من الممثلين الهزليين إلى مسرحها، وكذلك بعض الهواة

المتوددين؛ وكانت الطلبات الدوقية من الرسامين والفنانين الباريسيين تُعد من بين الأكثر أهمية. وكان الدوق يسهّل نمو الصحافة الدورية باللغة الفرنسية في دويلاته. غير أن المستفيدين من الامتيازات يعرفون أن عليهم ممارسة رقابة ذاتية كلما تعلق الأمر بملك فرنسا. أحدهم، اسمه تيلليه (Tellier) كتب التالي: «نراعي قليلاً جانب الوزير الفرنسي لأن لنا حاجة به لإدخال كتبنا؛ غير أن الكهنة والبرلمانات وسائر الملوك غير العاهل الفرنسي والقصر الملكي معرضون لنقدنا». أما الأمير ديمتري الكسيڤيتش غوليتسين (Dmitri Alekseevitch Golitsyn)، سفير روسيا في لاهاي وهو عالم معروف، فكان يقدر، من جهته، أن جريدة الجسرين «لا تكتب إلا بإملاءات الوزارة الفرنسية».

لاحظ الدبلوماسيون الأجانب العاملون في باريس حظوة سوق الإعلام المخطوط لدى أوساط الأمراء الأوروبيين. وإن أسهموا فيه فليزيدوا من عائداتهم ويحظوا بثقة أسيادهم معتمدين على أوراق ورسائل أدبية عديدة. من جهة أخرى، كان نشاطهم يهم كثيراً الغرفة السوداء، كما أنهم كانوا يعرضون أخبارهم المخطوطة على شكل رسائل شخصية موجّهة إلى علبة بريد صديقة في الخارج، ثم تبعث من هناك إلى العناوين الحقيقية. كان ميرابو (Mirabeau)، خلال سنوات إقامته البرلينية، يستخدم الطريقة ذاتها حين يبعث إلى الكاهن بيريغورد (Périgord) الرسائل الموجّهة أساساً إلى الوزير. كذلك كان يعتمد استخدام الأرقام في هذا المجال.

بات واضحاً أن الفرق بين الإعلام الخصوصي confidentielle أو المعروف بهذا الاسم أو ما يشبهه وبين الإعلام السري فرق ضئيل جداً. المخبرون السماسرة يقفون على هامش الدبلوماسية السرية أو يشكّلون أحياناً جزءاً عضوياً منها. كما

تعتبر مشاركتهم في حركة انتقال الأخبار الأدبية المستجدة إحدى الخصائص التي تتميّز بها أوروبا الأنوار كمساهمة لهذه الحركة وللمداولات والمواجهات.

III ـ من الصحف إلى الكتب

1 ـ الصحافة والتبادل الثقافي

باتت معروفة أهمية الترجمات والإصدارات وإعادة الطباعة والنسخ للتقليد في أوروبا في عصر الأنوار. إن جمعية نيو شاتل Neuchâtel للطباعة المعروفة أعربت عن الرغبة، وذلك في أول نشرة دعائية (1772) «أن تجعل الكتب الجيدة الصادرة في جميع المجالات ومختلف البلدان أكثر تعميماً وانتشاراً». أما شارل دي مونتسكيو (Montesquieu) فقد كتب في كانون الثاني/يناير 1750 نصاً (لا يخلو من المبالغة لأن عدد الطبعات حتى ذلك الوقت كان اثنتي عشرة طبعة وللترجمات ثلاثاً) يتعلق بكتاب «روح القوانين Esprit des Lois»، الذي كان قد طبع قبل سنتين في جنيف: «صدرت اثنتان وعشرون طبعة من كتابي وانتشرت في كل أوروبا»، ثم أضاف، في أيار/مايو 1750: «إنه الكتاب الذي صدر منه خلال عامين من الزمن اثنتان وعشرون طبعة وصار معروفاً بالتالي في كل أوروبا». لهذا فإن دراسة التعامل مع كاتب واستقباله، أو أي واحد من كتبه، في أوروبا القرن الثامن عشر، تبيّن أن ذلك يعود إلى تنظيم مساحة النشر والدعاية أكثر منه إلى محتوى الكتاب بالذات. ديدرو الذي درسته حنّة سعادة بدا قليل الحضور في المكتبات الألمانية التي أودعت فهارسها في غوتنجن و وولفنباتل «Wolfenbüttel». الروايات الأدبية وفرت سِيَراً ذاتية

غير كاملة أو مغلوطة، ومُستعادة بصورة تدريجية. كتاب «الأفكار الفلسفية» يُعزى الفضل فيه إلى الفيلسوف والناشر جوليان اوفروري دي لا متري (La Mettrie) (من أصل فرنسي عاش في البلاط الألماني). غير أن وسيلتي نشر مختلفتين، الصحف العلمية من جهة والصحف المسرحية من جهة أخرى، أسهمتا لا في الترويج لكتبه فحسب بل في صنع مؤلف انطلاقاً من انتقاء مؤلفاته: «الأفكار الفلسفية «Pensées Philosophiques»، «رسالة عن العميان «Lettre sur les Aveugles»، «الموسوعة «Encyclopédie»، في الصحف العلمية؛ رب العائلة، الابن الطبيعي، في صحف المسرح. وهكذا تكون الأنوار الألمانية قد صنعت ديدرو مختلفاً عن ديدرو الفرنسي.

عن طريق الصحف إذن كان القراء الأوروبيون يستعلمون غالباً عن الإصدارات الأجنبية وعن تطور الذوق، ويبنون تصوراتهم عن الكتّاب الأساسيين. كانت التقارير تلعب هنا دوراً أساسياً، وهذا ما يدل عليه تطور جريدة العلماء: في حين كانت نسبة 70٪ من المؤلفات التي تمّ إحصاؤها تصدر في الصحف الباريسية بين عامي (1697 ـ 1701)، صارت المنشورات الأجنبية هي الأكبر بين عامي (1710 ـ 1714) ـ فضلاً عن مرحلة الحرب ـ؛ تأتي في الطليعة المقاطعات المتحدة تليها ألمانيا وإنكلترا. أما عدد المؤلفات العلمية واللاتينية المتنامي في الفترة ذاتها فيؤكد هذا الميل إلى «المركزة باتجاه الاهتمام العلمي والدولي» جان بيير ڤيتو (Jean-Pierre Vittu). في جميع الحالات، كان الخبر، سواء علمياً أو أدبياً، ينتشر عبر الوسيط. لقد كانت الشمولية ـ وهي مهمة عقيمة من حيث الجوهر ـ أمراً مطلوباً على الدوام، من هنا كانت التقارير الموجزة جداً في البداية، قبل أن تصدر التنقيحات أكثر غنى وأقل

عدداً، فكانت تستعاد في الصحف الأوروبية الناطقة بالفرنسية، تصدر كعناوين «قومية». تلك كانت، على وجه التحديد، حالة ثلاث من الصحف شكّلت قواسم ثقافية مشتركة بين فرنسا وألمانيا في الصحيفة الموسوعية (Journal Encyclopédique) التي تأسست في لِييج عام 1756 وانتقلت إلى بويون Bouillon عام 1759؛ الجريدة الأدبية الشاملة Gazette Universelle de Littérature في مدينة الجسرين (دوبون) Deux-Ponts (سبق ذكرها)، تأسست عام 1775؛ روح الصحف Esprit des Journaux، أسسها في لِييج «Liège» عام 1772 اليسوعي القديم جان لويس كوستر (Jean-Louis Coster). لِييج وبويون ودوبون هي مدن ثلاث في الإمبراطورية المقدسة، تقع في مقاطعات معروفة بانفتاحها على الأنوار. وقد كانت الصحف ذات الاعتبار المتعاطفة مع الأنوار تسهم في أن تنشر داخل فرنسا، أخباراً عن المسرح الألماني وتطوره، مأخوذة عن مصادر الصحافة الألمانية. تأثيرات شكسبير (Shakespeare) التي ظلت موضع نقد وغير مفهومة، لفترة طويلة، وباسم احترام القواعد والأصول (عدم الرضى عن «همجية شكسبير»)، عادت لتحتل موقعها باهتمام داخل النقد الألماني: الصحف الثلاث سجلت هذا التطور مخففة من نقدها بصورة تدريجية. في فرنسا كما في ألمانيا أخذ النقد، مع بداية عام 1780، يأخذ بالاعتبار النجاح الشعبي للمؤلفات على حساب احترام القواعد والأصول. نتيجة ذلك استقبلت جريدة مركور دو فرانس وجريدة بويون الموسوعية بالترحاب الترجمة الجديدة التي أنجزها لصالح المسرح الألماني نيكولاس دو بونفيل (Nicolas de Bonneville) (الذي صار محرك «الحلقة الاجتماعية» في ظل الثورة) وفريدل (Friedel): «لا شيء أكثر فائدة من هذا التواصل بين الثروات الأدبية، الذي يبدو أنه يتحقق أكثر فأكثر كل يوم بين مختلف شعوب أوروبا؛ هكذا تعلمنا نحن من

إنكلترا وتعلمت إنكلترا منًا». إيلي فريرون (Elie Fréron) ـ صاحب الموقف النقدي من الانوار الفرنسية وعدو فولتير، كان قد كتب عام 1771، في جريدة لانّيه ليترير L'Année Littéraire: «من كان يمكن أن يتوقع، قبل أربعين عاماً، أن يصبح الأدب الألماني باكراً منافساً لأدبنا؟ أية صدمة أحدثتها في صفوفنا كتابات هالر (Haller) (لاقت قصيدته دي ألبن die Alpen نجاحاً على صعيد أوروبا) وكلوبستوك (Klopstock) وغليم (Gleim) وويلاند (Wieland)، وخصوصاً غيسنر (Gessner) الفريد! لم يكن متوقعاً أن يبرز فجأة هذا العدد من الشعراء الممتازين في جميع ميادين الكتابة الشعرية، لدى شعوب لم يظهر أنها منذورة لغير الاعمال المثابرة في التنقيب والبحث المضني. حتى أننا بتنا مضطرين إلى الاعتراف بأن الألمان بيّنوا عن جدارة في بعض الأنواع الأدبية أكثر من الفرنسيين».

عملت هذه الصحف الفرنكوفونية فضلاً عن ذلك، وعبر انتحالها ما في الصحافة الألمانية، على نشر إعلام أكثر وفرة وغزارة من ذاك الذي توفره الصحافة الفرنسية وأقل شحناً بالقوالب القومية. كما أن هناك صحفاً أخرى سهلت عملية «الاستقبال المثمرة» هذه جيرار لودين (Gérard Laudin). وهكذا فقد قدمت الجريدة الاجنبية Journal Étranger (1754 ـ 1762) للقراء الفرنسيين مؤلفات غوتشيد (Gottsched)، وينكلمان (Winckelmann)، ويلاند، ليسينغ (Lessing)، ولم تنشر فحسب تقارير عنها بل ترجمات أيضاً، كذلك اهتمت بترجمة أعمال الجغرافي أنطون فريدريك باشينغ (Anton Friedrich Büsching).

غير أن انتحال «التجربة الأساسية لفهم الأنوار «Aufklärung» (حنا سعادة) أدت أحياناً إلى تراكم أخطاء تفصيلية، وإلى التباسات في نَسْب المؤلفات إلى مؤلفيها، بل وإلى تفسيرات معكوسة

وخاطئة. فقد كتبت حنَّة سعادة: «أحد المصادر الأساسية التي تزودت منها المعاجم والتواريخ الأدبية هي الجرائد العلمية، التي قضت مهمتها، في الواقع، في رواية كل جديد داخل جمهورية الآداب. وبدل أن يتستر الناشرون على عملية الانتحال واعتبارها مخجلة، راحوا يطلبونها من المتعاونين معهم (...) فبدا أن التنافس بين الصحف العلمية كان يحصل، بصورة أساسية، حول قدرتها على السبق في الإعلان عن المؤلفات المطبوعة على كل أراضي جمهورية الآداب. إن النزعة الصحافية هي ذاتها التي تحثّ على الانتحال والروايات الأدبية تنتحل ما سبق انتحاله». إن كتَّاب القواميس ومعاجم السِّيَر والروايات الأدبية تقتبس بلا خجل وبلا حذر من الصحف التي «تستلهم» هي الأخرى بعضها بعضاً. هذا النظام الدائري يحول دون تقاطع المساءلة لمصادر الأخبار وإخراجها إلى النور.

2 ـ حركة الانتقال العلمية والدوريات العلمية

بديلاً عن إشكالية استيعاب الأنوار في سياق قومي أو انتشارها، من الأجدى بلا شك بذل الاهتمام الشديد بحركة التنقلات الثقافية والعلمية في أوروبا الأنوار كرقعة للتواصل والتبادل، تنتشر فيها استراتيجيات الإعلام والمداولات والاتفاقات ـ الناجحة أو الفاشلة ـ من أجل نشر فرضية منافسة أو إثباتها أو احتوائها أو الاعتراض عليها ودحضها. هذه الاستراتيجيات كانت تحرك وسائل الإعلام والوسطاء الثقافيين والخبراء والهواة ـ بالمعنى الذي كان يسود في القرن الثامن عشر ـ ورعاة الثقافة والكتابة وكذلك الأجهزة المؤسساتية المختصة باكتشاف المعارف والتثبت منها. إذ ذاك ينبغي وضع المبادلات العلمية في السياق

الاجتماعي والثقافي والسياسي لإنتاج المعارف ونشرها. لقد تغلب الاتجاه إلى الحيازة والاقتباس على التلقي السلبي، ولم تقحم المبادلات فحسب الأسماء الكبرى من مثقفي أوروبا في علاقات نزيهة زعماً، بل جمهرة من المغمورين، أو مجرد الفضوليين أو كذلك محدودي الدخل الذين يحفزهم تمويل مشاركتهم مقابل أموال قليلة بعيدة الاحتمال، مع احتمال إثارة عداوة من يدافعون عن الحقوق الحصرية لفئة من الجسم الاجتماعي (هي الأفضل والأكثر سلامة)، حقوقها في جمهورية الآداب في مواجهة مزاعم صعاليك الأدب في شق طريق على مسرح الرأي العام. فينويو دو فالبير (Fenouillot de Falbaire) حذر أهل الأدب، عام 1770، بقوله: «يقضي الوئام في المجتمع ألاّ يضحَّى بطبقة الرجال الذين ينورونه لمصلحة طبقة ثانوية من الرجال الذين يتكسبون من الأنوار ومن عقول الآخرين». إن أوروبا الأنوار عبأت عديداً يفوق ما عبأته جمهورية الآداب بصيغتها المثالية.

يعود نشوء أول دوريتين علميتين إلى العام 1665: جريدة العلماء في باريس Journal des Savants، والعقود الفلسفية في لندن Philosophical Transactions. وقد بلغت الظاهرة أوسع مداها في القرن الثامن عشر، حيث ظهر حوالى خمسمئة دورية علمية بين (1665 ـ 1789)، ثلثا هذا العدد ظهر بعد عام 1770. كانت ليبزغ (Leipzig)، حيث وقّعت مجموعة من الباحثين العقد البحثي ونشرته مكتبة غوس Gosse وغليديتش Gleditsch، إلى جانب لندن وباريس، المركز الرئيسي لازدهار النشر. ثلثا عدد الدوريات العلمية الصادرة ظهرت في ألمانيا، وكان ظهور بعضها عابراً: مجلة واحدة من أصل أربع لم يتخطَّ صدورها فترة عام؛ الثلث فقط تجاوز خمس سنوات. ولم تردع هذه المخاطر المكتبات ولا مديري الدوريات. ينبغي أن يُستخلص من ذلك وجود طلب

تحفيزي قوي. غير أن القراء كانوا مشتتين جداً في أنحاء أوروبا، ومن الصعب أن يتكيفوا مع واقع الحال. إن ضعف البنى التجارية وفرق التحرير أضعف بدوره المجلات الصادرة بأعداد محدودة. أما الدوريات الوثيقة الارتباط بالمؤسسات الأكاديمية فقد استفادت من أفضل موقع: كانت مجلات جورنال دي سافان Journal des Savants، فيلوزوفيكال ترانزاكشين Philosophical Transactions، ميسيلانا كوريوزا مديكو ـ فيزيكا Miscellanea Curiosa Medico-Physica مرتبطة على التوالي بأكاديمية العلوم، والجمعية الملكية (مؤسس المجلة كان سكرتير الجمعية)، وأكاديمية قيصرية ـ ليوبولدينا Academia Caesarea-Leopoldina.

على امتداد القرن الثامن عشر ظلت الدوريات العلمية الطبية مقصد الباحثين، ينشرون فيها أبحاثهم ويروّجون لها ويحمون عبر الإعلان عنها أسبقيتهم في الاكتشاف ـ محترسين طبعاً من عدم نشر النتائج بأكملها ـ وينظمون حملات دعائية حقيقية ضد أطروحةٍ منافسةٍ أو من أجل تأمين الدعم والحماية لعملهم البحثي. إن الدوريات العلمية نجحت في تحقيق ثلاثة أهداف مجتمعة: تعميم النشرات عبر توزيعها؛ والتأقلم مع السياق القومي، وذلك بفعل تعايش عشرات العناوين الصادرة في كل القارة والمنشورة باللغات الحية الأساسية؛ وتثبيت مزايا الباحث في نظر أقرانه. وهكذا فإن دالامبِر (D'Alembert) نشر في الأوبسرڤاتور ليتيرير ومركور دو فرانس وجورنال أنسيكلوبيديك نصوصاً انتقد فيها حل مسألة الأجسام الثلاثة الذي كان قد طرحه كليرو (Clairaut)، فرد عليه هذا الأخير في جورنال دي ساڤان. عالم الرياضيات الكبير ليونارد أولير (Leonhard Euler) نشر في عامي (1726 ـ 1727) أول نصين له عن المنحنيات المتوافقة في جريدة أكتا إيروديتوريوم (العقد البحثي) في لايبسيك. أما المَثَل الذي يُحتذى

فهو ذاك الذي قدمه لايبنتز Leibniz في أواخر القرن السابع عشر، حيث نشر، بين صيف 1691 وربيع 1692 حلّه مسألة منحنى السلسلة، استناداً إلى الحساب اللانهائي الصغير، في أكتا إيروديتوريوم (لايبسيك)، وجورنال دي ساڤان (باريس) وجيورنال دو ليتيراتي (بارما) لكي يقيم صلة بين منهجه ومختلف مدارس الرياضيات.

إن ازدهار الأكاديميات في أوروبا خلال القرن الثامن عشر أفسح في المجال لإقامة قنوات أخرى للتواصل العلمي ولإطلاق التنافس على نشر البحوث العلمية والدوريات غير المتخصصة مع قوائم الأعمال والبحوث المنشورة من قِبل الأكاديميات. بلغ عدد الأعمال الأكاديمية المنفذة بين (1750 ـ 1789) مئتين، ولعبت دوراً أساسياً في بروز الأكاديميات على الصعيد الأوروبي وتثبيت مزاعمها في النفع العام وتقدم العلوم. حين غادر ليونارد أولر مع ابنه جوهان ألبرخت (Johann Albrecht) برلين إلى بطرسبرغ عام 1766، بهدف النهوض بأكاديمية العلوم الملكية، جعلا من بحوث المؤسسة العلمية رافعةً لمشروعهما الإصلاحي، واستخدما على وجه الخصوص علاقاتهما الوثيقة بالدوريات باللغة الفرنسية الصادرة في ألمانيا على يد الشتات البروتستانتي الفرنسي، لكي ينشرا إعلانات إصدار وتقارير مدحية. بالمناسبة، كانا يستخدمان الدوريات لتصفية الحساب مع الطاغية مدير الأكاديمية فلاديمير أورلوف (Vladimir Orlov) الذي تواجه معهما بحدة. الجدير بالذكر أن هذه الحملة الصحافية تغلبت في النهاية على معارضيها.

كانت الأكاديميات ترسل الأعمال والأبحاث والتقارير عن نشاطاتها إلى زميلاتها من الأكاديميات الأخرى أو إلى أصحاب النفوذ الذين يحمونها ويوفرون لها الدعم، وكانت تنشر البحوث

الفائزة بجوائز بعد مباريات أكاديمية. ومثلما غادر ليونارد أولر مؤسسة أكتا إيروديتوريوم Acta Eruditorium ليلتحق بأعمال أكاديمية العلوم الملكية حين دعي إلى بطرسبرغ، كذلك فعل لابلاس (Laplace) الذي قدم بحثه الأول عام 1771 إلى نوفا أكتا إيروديتوريوم، ثم نشر بعد ذلك في ميسيللانا Miscellanea الصادرة عن أكاديمية تورينو ثم في ميموار Mémoires الصادرة عن أكاديمية العلوم. وقد شكّلت المنشورات الأكاديمية دليلاً على التكامل الناجح مع الحلقات الداخلية في جمهورية العلوم. غير أن نمو الدوريات الأكاديمية أو الجامعية لم يؤدِّ إلى التخلي عن طباعة الأبحاث في مجلات علمية غير متخصصة، طالما ظلت هذه الأخيرة تستفيد من مهل للنشر أقصر من تلك التي تستفيد منها النشرات الأكاديمية. إن كثيراً من العلماء كانوا يختارون إذن النشر التمهيدي في المجلات العامة التي تضمن لهم حضوراً واسع النطاق وحقهم في ملكية التأليف، قبل أن ينتقلوا إلى النشر في الدوريات الأكاديمية. على أي حال، لم يكن تخصص المجلات، الذي أتاحه تعدد العناوين الصادرة خلال النصف الثاني من القرن، ليتعارض مع هاجس التعميم. كان ذلك واضحاً على نحو خاص في العناوين الاقتصادية مثل الجريدة الاقتصادية Journal Économique (باريس 1751 ـ 1772) أو فيزيكاليش إيكونومش ووشنشريفت Physikalisch Œkonomische Wochenschrift (شتوتغارت Stuttgart، 1753 ـ 1766). ولم يكن الفصل بين الأنواع الكتابية، بعدُ، أمراً لازماً، وذلك للحفاظ على خليط واسع من البحاثة والهواة داخل أوروبا الأنوار، من الذين لا يترددون في الارتباط بعلاقة مع العلماء المحترفين، القليلي العدد حتى ذلك الحين، الذين لم يكونوا قد حظوا بعدُ باحتكار وظيفة الخبير. غير أن ذلك لم يمنع ظهور مجلات متاحة بالأولوية للمحترفين، أو

تبديل سياسة النشر لدى بعض المجلات. عام 1781 كانت جريدة لايبزيغر ماغازين فيور ناتوركاند Leipziger Magazin für Naturkunde (للرياضيات والاقتصاد) هي الدورية الأولى المحترفة المخصصة لعلماء الرياضيات. بعدئذٍ بخمس سنوات ظهرت مجلة أخرى شارك فيها جوهان الثالث برنولي (Johanne III Bernoulli) - ممثلاً السلالة العلمية الشهيرة - واستلم دفتها. في فرنسا تخصصت جريدة غازيت دو سانتيه (الصحة) بدءاً من عام 1776 ثم حذت حذوها في ألمانيا دورية بعنوان ميديسنيش ليتاراثور فور براكتش إيرتز Medicinische Literatur für Praktische Aertze.

بيد أن انطلاق ورش البحث الأوروبي ومشاريع النشر الكبرى التي تجند لها عشرات المشاركين في كل القارَّة هو نوع من الوفاء من جانب أوروبا الأنوار العالمة لروح جمهورية الآداب في القرن السادس عشر. وإذا كان بينيديكتوس أرياس مونتانوس (Benedictus Arias Montanus) (1527 - 1598) قد جمع ألمع بحاثة أوروبا، لكي ينشر كتاب «التوراة الملكية» المتعدد اللغات (1568 - 1572)، الذي طبعه كريستوف بلانتان (Christophe Plantin) في أنڤيو «Anvers»، فإن جمعية الرصد الجوي في بلاد مانهايم حفزت، خلال عام 1780، على مقارنة معطيات الرصد الجوي الآتية من كل إنحاء أوروبا.

IV - من الريشة إلى اللوحة: المراسلة وشبكاتها

1 - المراسلة والتبادل العلمي

لعبت الرسالة وشبكة المراسلة دوراً أساسياً في تنظيم التبادل العلمي خلال القرن الثامن عشر، حتى أن بعض

الأكاديميين، مثل دوبوا دو فوسو (Dubois de Fosseux) في أراس «Arras»، كرس نفسه كلياً لخدمة شبكات المراسلة العلمية هذه. وفي ڤيرونا «Vérone» قررت جمعية إيطالية تنفيذ مشروع طموح بقدر ما هو مبتكر (خلال عام 1780) يقضي بإنشاء أكاديمية مخصّصة للعلماء ويخضع أعضاؤها عن طريق المراسلة فحسب. إن المراسلة السلبية (التلقي) والإيجابية (الإرسال) تفسح المجال لها في المرحلة الأولى للتعرف إلى الفضاء العلائقي وشبكته: توسع جغرافي، تمركز، صلات مميَّزة، أهمية عدد المشاركين، سهولة التبادلات، حياة الشبكة وموتها ـ مع معدلات تسارعها واحتمالات صعودها وتقلباتها. لقد كانت بعض شبكات المراسلة بمثابة أدوات ذات قدرة هائلة على نشر المعرفة والنتاج العلمي وعلى الوصل بين المشاريع العلمية وعلى حشد الطاقات وملاءمة الظروف؛ من هذه الزاوية، كانت شبكة برنوا ألبرخت ڤون هاللر (Bernois Albrecht von Haller) (1708 ـ 1777) مثالاً نموذجياً. فقد درس الطب في توبنجن وفي ليده «Leyde» (المقاطعات المتحدة)، قبل أن يمارس فنه، لفترة وجيزة، في برن «Berne»، وقبل تعيينه أستاذاً في علم التشريح والجراحة والنبات في غوتنجن. اشتهر في كل أنحاء أوروبا بفضل قصيدته die Alpen، كما عُرف كأحد أوائل علماء النبات في أيامه وأحد مؤسسي الفيزيولوجيا التجريبية. إن جردة بمراسلاته، استكملت حديثاً، تكشف عن كم هائل من التراسل السلبي والإيجابي. فقد تراسل هالر مع 1200 شخص تقريباً في أنحاء أوروبا؛ 17000 رسالة وصلت إلينا منها 3400 كتبها هالر، وأكثر من 13000 أرسلت إليه. في الرسائل المئة التي تبادلها (1754 ـ 1776) مع كارلو أليوني (Carlo Allioni) (1728 ـ 1804)، أحد أوائل علماء التشريح في إيطاليا، (الذي بلغ إجمالي الرسائل التي تلقاها نحو 5000 رسالة)، أثيرت وحللت آخر

اكتشافات السويدي لينه (Linné) وكذلك المشاريع التوجيهية التي كانا يضعانها في حينه. جرى تبادل الأخبار وتوسيع نطاق نشرها ووضعت اقتراحات فهرسية، ومن خلال شبكة كل منهما (هاللر وأليوني) مع مراسلين آخرين زاد عددهم على المئتين، كان يتحقق أحياناً تواصل حقيقي متعدد الأصوات.

إن مراسلات ألبرخت ڤون هاللر تنطوي أيضاً على شهادات صداقة وإشارات عرفان وإفادات دعم أو تقدير من أستاذ إلى طلابه، من شخص إلى أقرانه، من خبير تتمناه أية أكاديمية علمية، كما أن فيها يقظة ثقافية أصيلة: أخبار المكتبات تقارير عن تجارب، نشر بيانات تمهيدية أو تنظيم مباريات علمية. وكانت المبادلات الترسلية مصحوبة أحياناً بكتب ووصفات ونباتات ووثائق قيّمة. بمقدار ما كان وضع هاللر العلمي يتعزز ليصير أساسياً في أوروبا الأنوار العلمية كان يزداد عدد الرسائل التي ترسل إليه؛ فقد تلقى هدايا ورسائل تكريم من أشخاص، بصرف النظر عن رأيه الشخصي فيهم. كان يمكن أن يتجاهل كل شيء عن مراسل طارئ على عالمه، وذلك لكي لا يعاود الظهور مرةً أخرى أبداً، كما كان يقيم صلة ترسلية ثابتة ودائمة مع مخبر أو تلميذ قابل للتطور في مجرى عملية التبادل.

غير أن وجود روابط أوروبية في شبكات التواصل ينبغي ألاّ يشكل مصدر خطأ في النظرة إلى فضاء الأنوار الأوروبي والتبادلات العلمية التي حركته. ومثلما أن قائمة تضم مشاركين أجانب ذوي شأن قد تحرك الغرور الأكاديمي لكنها لا يجوز أن تزرع الوهم، فإن هذه المراسلات الواسعة النطاق ظلت محصورة، من زاوية سهولة التبادل وكثافته وأثره على النشاط العلمي اليومي الذي يقوم به أربابه. إن الترسل هو شهادة على الانتماء

النظري إلى جماعة علمية مشتتة بين أنحاء أوروبا، ذلك أن المراسلات هي، في معظمها، «ذات طابع قومي». يدل على ذلك بوضوح حجم المراسلات الضخم ـ عدد الرسائل فيها بالآلاف ـ المحفوظة لإيطاليا الأنوار: إن بضع عشرات من المبادلات عبر أوروبا ينبغي ألاّ يخفي أهمية المبادلات المحلية، ذلك أن المدى القومي أو المتعلق بالمقاطعات المحلية يبقى هو المهيمن على ساحة أوروبا الأنوار، حتى لو كانت إمكانية التبادل البعيد المدى أمراً متوافراً دوماً، وكذلك الاعتزاز بالانتماء إلى جماعة علمية عابرة للحدود. إن الصحافة الدورية ـ المتخصصة وغير المتخصصة، والاطلاع على التقارير الأكاديمية، والصدى القوي الذي تتركه المجادلات العلمية، كل ذلك ينمّي هذا الشعور بالانتماء ويقويه، ويوفر، في الوقت ذاته، الأخبار ويوجه الممارسات.

لهذا تتيح المراسلة لمن يرى فيها استراتيجية تواصل حقيقية وتطور علمي أن يغادر هوامش الحقل الأكاديمي ليدخل إلى صميمه فيكون على احتكاك مباشر بالأخبار والأعمال والمساهمات في تطور الأنوار، ويتمكن من احتمال الاستفادة من معرفة أكاديمية، مثلما تشهد على ذلك «استراتيجية الشهامة» مارك راكليف (Marc J. Ratcliff) التي طبّقها العالم أبراهام ترمبلي (Abraham Trembley) من جنيف (1710 ـ 1784)، أحد مؤسسي علم البيولوجيا. فقد نجح ترمبلي، بقوة المثابرة، في أن يثير اهتمام كل أوروبا العلمية بمديخ (حيوان مائي) الماء العذبة (Hydra Viridissima). لقد ظهر ترمبلي كعالم مترفع، أو «فلتة شوط» بالقياس إلى نظام المعرفة الأكاديمي؛ كذلك اختار التواصل الحر مع نتائج هذه التجارب، مستفيداً من نهوض شبكات البريد ـ انخفاض التكلفة، سرعة وضمانة عالية في التبادل ـ، فراح يبعث

عينات من المديخ عبر أوروبا، راجياً ممن تصلهم الرسالة من العلماء أن يعيدوا التجربة التي قام بها ويحكموا على الحالات واحدة واحدة، ولم يتوانَ عن الإجابة بلا مقابل على طلبات الاستعلام التي أخذ يتلقاها. شيئاً فشيئاً نجح في إثارة اهتمام عدد لا بأس به من البحاثة في مجال المديخ وفي اكتشافاته، وعرف كيف يستثمر مراسلاته مع أهم ممثلي جمهورية العلوم في صميم عُدّة المعرفة والشهادة العلمية: الأكاديمي الفرنسي ريومور (Réaumur) (1683 ـ 1757)؛ مارتن فولكز (Martin Folkes) (1690 ـ 1754)، رئيس الجمعية الملكية. غير أن ترمبلي رفض الألقاب الأكاديمية حين اقترح عليه ريومور مثلاً أن يُنتخب مراسلاً لأكاديمية العلوم؛ لقد فضل التواصل الحر مع ريومور على التراسل الرسمي مع الأكاديمية. لهذا اختفى ترمبلي وراء اكتشافه المتعلق بتجدد مديخ الماء العذبة من أجل التوصل إلى نموذج للبحث، نموذج للترفع الشخصي لصالح التقدم العلمي. لقد نهض مقامه على التواصل الحر ونقاش الأبحاث عبر فضاء العلوم الأوروبي.

2 ـ استنفار أوروبي

أتاحت المراسلة وشبكاتها لفضاء الأنوار الأوروبي أن يكسر الطوق ويتوسع ويسرّع عملية التواصل والتقارب مع المركز. ولهذا كان لها أهميتها الخاصة بالنسبة إلى العلماء المتواجدين جغرافياً بعيداً عن المراكز الأساسية لإنتاج العلم والمعرفة الأكاديمية ونشرهما. يصح ذلك على وجه الدقة على أوروبا الوسطى والشرقية. وقد أدى إتقان الفرنسية، ولو بصورة متفاوتة، واستخدام اللاتينية و/أو الإيطالية ـ لغة البلاط في ڤيينا ـ إلى جعل هذه المبادلات الترسلية والعلمية أمراً ممكناً؛ وإنه لأمر ذو

دلالة إنشاء شبكة المراسلة الأوروبية من قِبل جوزف نيكولاس ويندشغراتز (Joseph Nicolas Windischgrätz) (1744 ـ 1802)، أحد نبلاء النمسا وبوهيميا.

هو أحد المقربين من الإمبراطور جوزف الثاني، ثم انسحب من دوائر الدولة. كان تحت تصرفه 250 مراسلاً عبر أوروبا، ثلثهم من الأكاديميين والعلماء، ومكتبة تضم 5000 كتاب يحتل موقعاً مهماً فيها كل من كوندورسيه (Condorcet)، دالامبِرت، هلڤتيوس (Helvétius)، آدم سميث (Adam Smith) أو بيكاريا (Beccaria). هذا الرجل ذو الثقافة القانونية كان يهتم بتطبيق الرياضيات في المجالين السياسي والإداري، وخصوصاً تطبيق الاحتمالات على علم الأخلاق وعلم السياسة. لقد سعى ويندشغراتز إلى اكتشاف القواعد الرياضية القادرة على إدارة المجتمع والقوانين واتخاذ القرارات السياسية إدارة عقلانية. يعني ذلك عقلنة العلوم الأخلاقية والسياسية، على غرار العلوم «البحتة». هنا تَطابَقَ طموحه (وهو طموح تميّزت به الأنوار)، من دون أن يدري، مع اهتمامات كوندورسيه، الشخصية المركزية في آخر جيل من الأنوار الفرنسية، الذي كان يحضر دراسة موضوعها: «بحث في تطبيق التحليل على احتمالية القرارات المتخذة بتعدد الأصوات». على طريقة المباريات الأكاديمية، أطلق ويندشغراتز موضوع بحث مع جائزة تشجيعية على نطاق أوروبا الأنوار، وهو عبارة عن برنامج مرفق بأسئلة تحدد مراحل المسابقة ونظامها والمؤسسات المعنيّة بتقويم مختلف الاقتراحات، وقد طبع البرنامج بالألمانية واللاتينية والفرنسية وجرى توزيعه عبر الأقنية الأكاديمية والدوريات العلمية (جريدة العلماء، الجريدة الموسوعية، مركور دو فرانس، غازيت ليثيرير في غوتنجن، وينر زيتونغ Wiener Zeitung، وخصوصاً جريدة هامبورغ السياسية) والمراسلات ـ آدم سميث تلقى حوالى

مئة نسخة من البرنامج ـ كان الأمر يتعلق ببرنامج حقيقي للبحث على النطاق الأوروبي وحتى ما وراء الأطلسي، ذلك أن بنجامين فرانكلين كلف بنقل الإعلان إلى أميركا. خلال أشهر معدودة صارِ البرنامج موضوع مبادلات علمية وترسلية مكثفة. أما لجنة الحكم فهي مؤلفة من أكاديمية العلوم في باريس والجمعية الملكية في أدنبره وجامعة بال «Bâle».

V ـ الجولة الكبرى وثقافة النبلاء الجوالة في أوروبا

1 ـ جولـة التكويـن

شكّلت الجولة الكبرى تقليدياً إحدى الوجوه التي فرضت نفسها في أوروبا الأنوار. غير أن دراستها، استناداً إلى روايات وكتب دليل المسافرين بشكل أساسي، هي أقرب إلى المختارات الأدبية منها إلى التاريخ الثقافي للممارسات الاجتماعية. بسبب ثغرة في التعريف والتحقيب تنحو الجولة هذه منحى الإحاطة بمجمل طقوس السفر في القرن الثامن عشر. لحسن الحظ، إن ما قام به دانيال روش (Daniel Roche) من تحريض على دراسة الثقافة المتنقلة أتاح الفرصة لمعرفة أبعادها ووضعها في سياقها ودراسة التجهيزات المادية (شبكات النقل) والاقتصادية (فنادق أَدِلاَّء) والمؤسساتية (شرطة الأجانب تطور الأوصاف والجوازات، بل تطور نوع من التعاون الحدودي على الحدود الغالية ـ البلجيكية)، المتعلقة بإدارة الموجات التي أفضت إليها الثقافة المتنقلة.

كان هذا الفصل قد أتاح لنا استعراض بعض حركات الانتقال الثقافية والعلمية، بينما سيركز الفصل الثالث على إسهام جمهورية الماسونيين العالمية في حركة انتقال للبشر والأفكار

ووسائل الإعلام التي تحملها، حركة ذات طابع أوروبي حقاً. هنا، ننظر نظرة خاصة إلى «الجولة الكبرى» بصفتها «ممارسة تربوية للنبلاء الأوروبيين» جان بوتييه (Jean Boutier)؛ لأن الجولة كانت مقرونة تقليدياً بالأرستقراطية البريطانية وبالشرائح العليا من الطبقة الحاكمة، فهي كانت تعني، في الواقع مجمل نبلاء أوروبا: بولونيون وروس وآخرون من منطقة البلطيق كانوا كثيري الحضور في ستراسبورغ يترددون إلى الجامعة اللوثرية، قبل أن يستكملوا تكوينهم الثقافي، في حين يكون عدد منهم قد قضى مرحلة في ليدي «Leyde» في المقاطعات المتحدة، وفي غوتنجن. كانت مدارس النبلاء في بولونيا ومودين «Modène» وبارما «Parme» وسيين «Sienne» السيطرة الألمانية عليها ساحقة؛ لم يكن اختيار الجولة الكبرى يقتضي العزوف عن رحلات تدريب تجاري عبر أوروبا والمستعمرات. غير أن هذا الكتاب يهتم بدراسة أوروبا الأنوار أكثر من اهتمامه بأوروبا القرن الثامن عشر. في المقابل، إذا كان بعض الرحالة التجار يُبدون تأثُّراً بالتراث الثقافي والفني الذي يتيح لهم ترحالهم الاطّلاع عليه ـ بارو (Baraux) من أنفير «Anvers» خلال وجوده في تريست «Trieste» أو رابي «Raby» من غرينوبل «Grenoble» مقيم في أميركا، اشتهر باقتنائه مجموعة كتابات فلسفية غير معروفة ـ فأغراضهم ليست واحدة، لا ولا المراحل التي يختارونها. في إيطاليا يفضل التجار ميناءَي جنوى وليفورنا «Gênes et Livourne»، والسوق في الإسكندرية أو في سالين «Salerne» أكثر مما يفضلون روما ونابولي وفلورنسا.

2 ـ تطور

لم تكن الجولة الكبرى تخضع لمسار صارم لا يقبل أي

انتهاك، بل الأحرى مقصود ممارسة تربوية واجتماعية ودنيوية تتأثر بالظروف وأنماط المعيشة التي كانت تعيشها أوروبا في حينه. ينطبق ذلك حتى على إيطاليا، المعروفة كمقصد مفضل، بل إجباري لكل «سائح» من علِية القوم. إذا كانت مدينة البندقية قد صارت مهجورة أكثر فأكثر في النصف الثاني من القرن، خصوصاً من قِبل الفرنسيين، فإن الحفريات الأثرية في بومباي وهركولانوم «Herculanum» بين (1738 ـ 1748)، على العكس من ذلك، قد جذبت الفرنسيين. تورينو وبارما وبيزا وخصوصاً فلورنسا هي مدن الشغف، في حين كان يتزايد عدم الاكتراث في مدن أخرى مثل رافينا «Ravenne» أو بادو «Padoue»، بحيث تضاءل الإشعاع الثقافي في جامعاتها؛ وقد كان الأَدِلاَّء في السفر يسجلون هذه التطورات وفي الوقت ذاته يرسخونها؛ مجموعة من الإصدارات الجديدة عن إيطاليا دلت على أن الهدف من الجولة الكبرى لم يكن ثابتاً: تلك كانت حالة مرشد (دليل) ريتشارد (Richard) عام 1766 ومرشد الفلكي جيروم دو لالاند (Jérôme de Lalande) عام 1769 والمرشدين النقالين في عام 1770؛ استكمالاً لذلك صدرت مؤلفات أخرى أكثر تخصصاً مثل «رحلة إيطاليا Voyage d'Italie» عن تاريخ الفن للكاتب كوشان Cochin (1758)، أو «مشروع الإرشاد العداني» (علم المعادن) لجان إتيين غيتار (Jean Étienne Guettard) الذي وضع، فضلاً عن ذلك، اعتباراً من 1746 مشروعاً طموحاً عنوانه «الأطلس العداني Atlas Minéralogique»، وإليه انضمَّ أنطوان لافوازِييه (Antoine Lavoisier) فيما بعد.

كانت رحلة الجولة الكبرى تتمّ عادةً على شكل مجموعات صغيرة من الطلاب مصحوبين بالمربين والخدم، ولم يكن أمراً

نادراً أن يعلن الطالب عن موعد رحلته في الجولة الكبرى في إحدى الدوريات المختارة بهدف البحث عن رفاق سفر، إذ كان «العدد» في الرحلة الجماعية يُعتبر الضمانة ضد مخاطر السفر، لكنه يحدث قلقاً لدى الأمهات ـ الجولة الكبرى كانت مرذولة عادةً لأنها تُرى كذريعة لممارسة الفسق والعربدة ـ ولدى الآباء الذين يخشون من ألا يتكيف أبناؤهم كفاية مع ظروف البلدان التي يزورونها. تلك كانت حالة اللورد شسترفيلد (Lord Chesterfield) في إحدى رسائله الشهيرة إلى ابنه: «علمت أن هناك عدداً كبيراً من الإنكليز في أكاديمية تورينو Académie de Turin (...) نحن لم نبعث بك إلى الخارج لتتحادث مع أبناء بلدك: إنك، وأنت بينهم لن تتعلم شيئاً مهماً، لا اللغة ولا العادات الحسنة».

كانت الجولة الكبرى تتأثر أيضاً بالأوضاع في أوروبا. وإذا لم تقف الحروب، وهو ما نذكّر به دوماً، حائلاً دون قيام الرحلات في القرن الثامن عشر، إلاّ أنها كانت تعرقلها. لقد شهدت السنوات التي تلت الحرب الأوروبية حقاً، والكولونيالية العالمية جوازاً، أي حرب السنوات السبع (1756 ـ 1763)، بصورة واضحة، تعويضاً عن سنوات الحرب ثم توسعاً. عاد البريطانيون، لم يحصل ذلك فحسب، بل صارت سيطرتهم ساحقة على أكاديمية الفروسية (أي تربية طبقة النبلاء) في أنجير «Angers»، غير أن الروس اندفعوا بقوة في الجولة الكبرى؛ ففي سان بطرسبرغ سار على المنوال ذاته جوهان ألبرخت أولر، مدير الدراسات لتلامذة البحرية. عالِم الرياضيات جيلبير روم (Gilbert Romme) صار مربياً لواحد منهم، هو باقل ألكسندروفيتش ستروغانوف (Pavel Aleksandrovitch Stroganov)، ابن الكونت ألكسندر سرجيفيتش ستروغانوف (Aleksandr Sergeievitch Stroganov)، الضابط الكبير في «الشرق ـ

الكبير» الفرنسي، الذي تعرف إليه على أعمدة المحفل الماسوني الكبير في باريس «نوف سور»، أي الأخوات التسع Neuf Sœurs. كذلك ضمَّ الكونت إلى صفوف حاشيته، عام 1786، فناناً فرنسياً شاباً مغموراً، اسمه بالتازار دولا ترافيرس (Balthazar de la Traverse)، ليزيّن بالرسوم كتاباً له بعنوان «رحلة رائعة من روسيا»، عزم على نشره على منوال أولئك الذين لاقوا نجاحاً كبيراً في أوروبا الغربية.

صارت منطقة البلطيق وروسيا جزءاً من فضاء حركة الانتقال الأوروبية، وصارت «الرحلة من الشمال» تحتل أهميتها، في حين ظلت شبه الجزيرة الإيبيرية في منأًى عن تلك الموجات. من أولى رحلات الجولة الكبرى التي تندرج في نورثرن تور Northern Tour (العبارة مقتبسة من حكاية الرحلة التي قام بها جون هينيكر (John Henniker) بين عامي 1766 و1775)، نذكر من غير تردد الرحلة التي قام بها ابن السير كليمون كوترل (Clement Cotrel)، سيد احتفالات جورج الثالث (George III) في إنكلترا، وابن اللورد جون كارتيريت (John Carteret)، بين عامي (1740 ـ 1741) بقيادة جوهان كاسبار وتستين (Johann Casper Wetstein). انطلقت الرحلة في حزيران 1740 من إلسنور «Elseneur» المشرفة على مدخل البلطيق، أقاموا خمسة أشهر في سان بطرسبرغ، قبل أن ينتقلوا براً إلى ألمانيا والنمسا وسويسرا والمقاطعات المتحدة. كان الاهتمام بروسيا، مترافقاً مع تثبيت موقعها كقوة أوروبية، يتنامى، ولهذا لم يكن يعني أن يتخلى زوارها عن أحكامهم المسبقة. فقد أكد ناتانيال وراكسال (Nathaniel Wraxall) عبثاً، في كتاب له بعنوان: «ملاحظات سريعة كتبت خلال رحلة في الأجزاء الشمالية من أوروبا»، أن سان بِترسبورغ هي «من بعيد أكبر شيء يستحق فضولاً حقيقياً»، ولم

يهمل ممالك الشمال «التي يغطيها الثلج أشهراً طويلة وتتوارى تحت رعب الشتاء القطبي، منطويةً على ظروفها، غارقةً دوماً في بقايا الجهل القوطي (القديم)».

3 ـ دخول ملحوظ إلى الدنيا

إن أهمية مراحل الجولة، (من عدة أيام إلى عدة أشهر)، عندما يتابع المسافر دروساً في أكاديمية النبلاء الشبان أو في جامعة، هي بمثل أهمية حركة الانتقال بالذات، ذلك أن المراحل يجري تحضيرها بجهد مكثف عبر البريد والرسائل. وهكذا تتنشط مجالات الاستقبال والضيافة وتُستنفر. إن البرليدر bearleader (بالإنكليزية)، ومعناها الحرفي «سائق الدّببة»، أو المربي الفرنسي، الذي يكاد يكون أكبر سناً بقليل من طلابه، أو الهوفمايستر Hofmeister بالألمانية، يرافقون هؤلاء الفتية من أبناء النبلاء. تقوم رحلتهم، في آن واحد، على دورة التثقيف بالمعنى الدقيق، التي ينبغي أن تتيح لهم، لدى عودتهم إلى بلادهم، الدخول بنجاح في السلك الدبلوماسي أو العسكري أو الإداري، وعلى التدريب ـ يتعلق الأمر بالنجاح في الدخول إلى العالم الجديد وتعلم قواعده ـ وعلى قبولهم واعتمادهم في مجالهم الجديد. الجولة الكبرى ليست إذن هي ذاتها الرحلة الأكاديمية التي عُرفت في عصر النهضة. في لندن أنشئت عام 1732 جمعية أهل الفن Society of Dilettanti وعُدّت الجولة الكبرى في عداد العلاقات الاحتفالية والفنية والدنيوية. في حين عُرفت الجمعية بدايةً بولائمها الماجنة، لكنها ما لبثت أن تعقلت، وقام رسامها الفاتن جوشوا رينولدز (Joshua Reynolds) بين عامي (1777 ـ 1779) بتصديرها للأجيال اللاحقة حاملة رسالة علمية ودنيوية بواسطة هؤلاء «الهواة» الواثقين بذوقهم السليم.

كانت الجولة الكبرى، على نطاق واسع، «تجربة أدبية» جان بوتييه. فقد جرت العادة، في الواقع، أن يدوِّن المسافر خلال سفره ملاحظات، ويسجل رسماً وكتابة انطباعاته عن الرحلة، ويشتق المادة من جريدة سياحية، مقتبساً كثيراً، في الحقيقة، من الأدِلاَّء والحكايات المنشورة. وهكذا فإن الكتاب الذي وضعه وليم كوكس (William Coxe) (عمل دليلاً سياحياً بين عامي (1778 ـ 1779)، ثم مرة أخرى عام 1789) وهو بعنوان «رحلات إلى بولونيا وروسيا والسويد والدانمارك»، صدر عام 1784 ثم أعيدت طباعته خمس مرات حتى عام 1803، وكان مقصد «السائحين». عادةً، رغبةً في استلهامه. لقد كان لهذه الجولات الكبرى الأوروبية أثرها. إذ كتب جان بوتييه: «من خلال التعاون على كتابة تقرير منهجي عن الرحلة يجد المسافرون أنفسهم أمام أول عمل مشترك، يبدأ بوضع جردة بأسماء الأماكن التي ينبغي أن يزوروها وبتقويم ووصف ما ينبغي أن يلاحظوه. وحتى لا تخضع الرحلة للارتجال كانت تندرج في سياق: عدد من كتب الدليل المطبوعة تعرض كملاحظات كتابية مجموعة من رحلة سابقة، كتابة تأخذ بدورها صيغة الجرائد الفردية».

تختفي الشهادة الشخصية غالباً خلف استعادة القوالب والكليشيهات ـ التي تغدو بالتالي معززة ـ وتحصر معنى الجولة الكبرى في حدود اكتشاف الآخر. إلاّ أن الغرض هو، الأحرى، اكتشاف الذات، من خلال رحلة يفترض فيها أن تكمل دورة التثقيف والتعرّف إلى «الدنيا» التي تمنحنا الولادة والتربية الحق بالانضمام إليها.

الفصل الثالث

أوروبا التنوير:
الماسونية نطاق قيد الاندماج

I ـ نجاح ملحوظ

في فصل من كتاب «أوروبا وقومياتها»، بعنوان ذي دلالة: «التوحيد الأوروبي الثاني: البلاط، الصالون، المحافل» يشدّد كريستوف بوميان (Krzysztof Pomian) على واقع كون «الماسونية قد تحولت بسرعة إلى حالة أوروبية ـ المؤسسة الأوروبية الوحيدة إلى جانب الكنيسة الكاثوليكية». الحقيقة أن الحركة الماسونية أخذت، منذ الثلث الأول من القرن الثامن عشر، بُعداً قارّياً، بل عالمياً، إذا أخذنا بالحسبان المؤسسات الاستعمارية العديدة التي أُنشئت باكراً في بلاد الهند وجزر الكاراييب وأميركا الشمالية. إن جولة سريعة على مساحة أوروبا تثبت ذلك: استفاقت دبلن رسمياً على الأنوار عام 1723، بل منذ 1688. في بريطانيا العظمى تعود الأنوار الإِسكُتلندية الأولى إلى عام 1599، قبل أن يشار إلى وجود حالة ماسونية خلال الحرب الأهلية في وارينغتن «Warrington»، شمال إنكلترا، عام 1646. في لندن انتعشت الحركة

الماسونية بدءاً من عام 1670، قبل أن يدشن المحفل الكبير المنعقد في عام 1717 عملية مأسسة الظاهرة الماسونية. في شبه الجزيرة الإيبيرية، أضاءت ليشبونَة ومدريد مشاعل أول المحافل فيهما عام 1728، وفي جبل طارق عام 1729، وفي بَرشلونَة عام 1749. في باريس نشاط المحفل ثابت، على الأقل منذ 1725، في جنيف عام 1736، في لوزان عام 1740، وفي «Neuchâtel» عام 1743 في البلاد المنخفضة النمساوية ظهرت الحركة الماسونية في تورناي «Tournai» وغان «Gand» عام 1730، وفي المقاطعات الكهنوتية في لِييج «Liège» عام 1749. في المقاطعات المتحدة وأوروبا لعبت روتردام دوراً ريادياً في (1720 ـ 1721). تبعتها لاهاي عام 1734، أَمستردام عام 1735. مضت إيطاليا على الوتيرة ذاتها، إذ دخلت الماسونية إلى كالابر «Calabre» حوالى عام 1723، إلى فلورنسا في 1732، إلى روما ونابولي في 1734. كذلك دخلت الحركة الماسونية إلى ألمانيا عبر ميناء كبير هو ميناء هامبورغ عام 1737، لكنها اختارت كذلك قناة أخرى عبر مجتمع الأمراء وأروقة البلاط (Hoflogen)، فظهرت في درسدن ـ وفي بولونيا التي كان يحكمها ملك ـ عام 1738، وفي برلين عام 1740. كما دخلت أيضاً إلى براغ عام 1735 وإلى ڤيينا عام 1742. أكملت منطقة البلطيق هذه البذرة الأوروبية الأولى، فاستفاقت سان بترسبورغ على الشعلة عام 1731، وستوكهُولم عام 1735، كوبنهاغن عام 1743، أوسلو (كريستيانا) اختتمت المسيرة عام 1749. يجدر بالذكر أن لهذه المعالم التأريخية دلالتها. إن وجود ماسونيين في أية مدينة كان سابقاً على مؤسسة الظاهرة الماسونية وإنشاء محافل، بل محافل كبرى فيدرالية موحدة، كما أن الاجتماعات اللاشكلية قد وُجدت قبل أن توجد المحافل في صيغتها المنتظمة.

بين سنوات (1720 ـ 1790) كانت قد ظهرت مئات المحافل ـ 900 على الأقل في فرنسا ـ مع عشرات آلاف الأعضاء ـ 40 إلى 50 ألف عضو في فرنسا بفعالية متزايدة بين (1725 ـ 1789)؛ 18 ألف عضو في ألمانيا، أمّنوا شبكة تواصل لا مثيل لها داخل أوروبا. الأُلفة الماسونية شملت أيضاً إقامة قرية لانغدوقية (نسبة إلى منطقة جنوب فرنسا تضم تولوز وجوارها)، على غرار سان بول دو فينوييه (Saint-Paul-de-Fenouillet) حيث تأسست جمعية برودنس Prudence في 27 نيسان 1760، أو جمعية برم Perm في جبال الأورال. إن التواريخ الأصلية لنشوء المحافل تبيِّن بوضوح، على مستوى القارَّة، حدود نموذج المركز ـ الطرف، وتشهد، على العكس، على كثافة حركة الانتقال الأوروبية التي تجسدت بإنشاء مؤسسات متزامنة في أربع أرجاء حركة التنوير.

هذا النشوء السريع والمستديم يستحق الاهتمام، حتى لو تعرض نموه إلى عوائق؛ ذلك أن نشاط الحركة الماسونية استؤنف منذ أن خفَّت الرقابة أو معارضة السلطة، وهو ما تدل عليه حالة البرتغال أيام بومبال Pombal، أو حتى حالة فرنسا في منتصف عام 1740. في الحقيقة، بالرغم من تعدد الأنظمة الماسونية المتنافسة والولادات التي ظهرت في القرن الثامن عشر وتنازعت الإشراف على الفضاء الأوروبي، ظلَّ الماسونيون موحدين حول مشروع أسلافهم المؤسسين: فتح ورشة بابل من جديد للنهوض بها ولتوحيد كل الآباء المشتتين على الجانبين منذ أيام السقوط الأول، أي العقوبة التي فرضها مهندس الكون الأكبر جزاء تفرق العمال وإفراطهم في التكبر.

استناداً إلى إعلان المبادئ الكوني ـ «العالم كله ليس سوى جمهورية كبرى كل قومية فيه هي عائلة وكل شخص فيه واحد

من الأولاد» ـ وعزمهم على الانتشار حتى آخر حدود العالم في جو من الوئام والانسجام ينبغي أن يسود أعمال الشغيلة المجتمعين داخل المحفل، طوَّر الماسونيون في الوقت ذاته وعياً أوروبي الطابع وبلوروا مشروعاً لإقامة جمهورية عالمية، مشروعاً صار أكثر فأكثر ملموسية خلال مجرى القرن.

المحفل مختبر اجتماعي، بمعنى أن المرء يتعلم فيه فن العيش مع الآخر، وهو مدرسة فضائل، لأن أعضاءه يصقلون الحجر الخام، بتعلمهم الاعتدال ودفع الحدود ولجم الانفعالات واحترام كلام الآخر واختيار كل طائفة في انتقائها ضباطها. إنه مدرسة في التسامح والتفهم المتبادل بين أقران يرى الواحد منهم الآخر كأنه نفسه، من هنا التوق المشترك إلى جمهورية الآداب بحيادية طائفية من جانب أهل الماسونية. هنالك فارق طبعاً بين الخطاب والممارسة، غير أن الأُلفة الماسونية تبقى، إلى حد بعيد، أمينة على المعايير الاجتماعية والثقافية والدينية التي تتولى إدارة الشأن الدنيوي، وتتولى منح أعضائها الأهلية أو نزعها عنهم، تصنيفهم أو إقصاءهم. لهذا شهد هذا المشروع نجاحاً ملحوظاً في القرن الثامن عشر لا مثيل له على صعيد القارَّة.

يظهر الكون الماسوني إذن كأنه تمدد لهذا الحيِّز المنسجم ليشمل كل المساحة المسكونية ـ التي تساوي عادةً أوروبا وممتلكاتها الاستعمارية ـ، في حين كانت تطرح على الأعضاء مسألة اللغة التي تتيح لهم التواصل في ما بينهم بلا عقبات وعلى قدم المساواة، من غير أن يخضعوا للغة مهيمنة. من زاوية النظر هذه ينبغي تناول جهد الماسونيين الفكري للتفكير في تنظيم القضاء الأوروبي. ويمكن، في هذا السياق، التركيز على أربعة نماذج أساسية متنافسة.

II ـ أيـة أوروبـا؟

بالنسبة إلى أنصار قيام نظام ماسوني فروسي ومسيحي المجتمعين في الرهبانية الصارمة (ستريكت أبزرڤانس Stricte Observance) بدءاً من بلاد الساكس (ينسب إليها الساكسونيّون أي الألمان القدامى)، فقد أخذ هذا النظام ينتشر على نطاق واسع في ألمانيا ثم دخل إلى فرنسا وإيطاليا والبلاد السكاندينافية وبولونيا وروسيا منذ بداية عام 1770، وصار الكون الماسوني مطابقاً، في نظرهم، لأوروبا المسيحية التي ينبغي إعادة الاعتبار إليها. نذكّر هنا بأن عدداً من الإنسانويين في القرن السادس عشر رأوا في جمهورية الآداب وسيلة لإعادة تأسيس أوروبا المسيحية على قاعدة العودة إلى الكنيسة الأصلية، في حين أن حركة الإصلاح البروتستانتية والكاثوليكية كانت تمزق أوروبا. والحال أن الكاثوليكي جوزف دوميستر (Joseph de Maistre)، عضو الرهبانية الصارمة، قدّر بالتحديد أن هذا الإصلاح الماسوني الأرستقراطي والمسيحي الذي انطلق من ساكس ـ حيث ولد الإصلاح اللوثري ليشق أوروبا ـ يمكن أن يشكّل أساساً لإعادة تأسيس أوروبا المسيحية. كل ذلك بعيد عن ماسونية الشيطان اليهودية التي ندد بها رجعيو نهاية القرن التاسع عشر.

إن خريطة النظام هي خريطة المعابد الأوروبية، الخريطة المؤرخة بطريقة إرادوية والمغلوطة تاريخياً بصورة مقصودة، المؤاتية لليوتوبيات واليوتوبيات المضادة. مشاريع عديدة طُرحت عام 1782، خلال المؤتمر الماسوني العام المنعقد في ستريكت أبزرڤانس. إن موروزي (Murusi) أمير ڤالاشي (رومانيا) المدعوم من الإخوة الروس اقترح أن تقام في نطاق عمل حكومة ساراتوف

(Saratov) مستوطنة للفرسان الماسونيين، كما اقترح أيضاً تدريب 50 ألف رجل في منطقة الدانوب لاستعادة القدس وأملاك فرسان الهيكل. تلك كانت مرحلة توسع الإمبراطورية الروسية على حساب الباب العالي العثماني واستعمار منطقة القوقاز بمشاركة الفرنسيين على نحو محدد. عند طرح مشاركة الفرنسيين دافع ماسونيّو الرهبانية عن مبدأ قيام أوروبا مسيحية، راسمين خطاً حدودياً جديداً لحماية النفس من البرابرة واحتواء الأعداء من غير المسيحيين. إن الإشارات العديدة، التي بعثت إلى روما في كتاب: «تاريخ أخوية الماسونيين وواجباتها وأنظمتها»، كانت صريحة أيضاً. يتعلق الأمر بإقامة حدود عسكرية على تخوم أوروبا المسيحية. لم تكن روح الصليبية قد ماتت بعدُ، كما أن نجاح أدب الفروسية لا يكذب نفسه.

تأسس محفل إنكلترا الماسوني الأكبر عام 1717، وذلك بضم أربعة محافل لندنية، فاقترح بدوره تنظيماً ماسونياً لأوروبا يشبه تنظيم الكومنولث Commonwealth، مع وجود دول مرتبطة «بالتاج» الماسوني وتحظى باستقلال ذاتي داخلي على نطاق واسع. لقد نظم المحفل أوروبا الماسونية بتوزيعها إلى محافل إقليمية استناداً إلى الحدود السياسية للدول، محتفظاً بحقه في إقامة محفل أو الاعتراف بآخر خارج الأَحياز البريطانية.

نجم عن ذلك اندلاع مواجهات مع الولاءات الفرنسية، وعلى وجه التحديد في نابولي وفي منطقة البلطيق والبلاد المنخفضة النمساوية وبولونيا، حيث كانت تتداخل الأمور بجوانبها الماسونية والدبلوماسية كلما كان القائمون بالأعمال أو السفراء ممثلو القوى الأوروبية الكبرى من الحَمَلة الأساسيين لمشعل الماسونية في أوروبا والمشرق. مقابل هذه الأطروحة الإنكليزية برز المحفل

الكبير Grande Loge، ثم محفل آخر باسم الشرق الفرنسي الكبير، منذ العام 1773 ـ 1774 ليواجها محفل أوروبا الماسوني الذي يقوم على أساس الولاءات القومية، أو السيادة وليس الاستقلال الذاتي، على امتداد مساحة حدودها هي الحدود السياسية للدول، أي أنها محددة على أسس دنيوية. أنشأت باريس عام 1765 بعثة من الماسونيين الأجانب وكلفتها التفاوض لعقد معاهدات صداقة مع المحافل القومية في السويد وبروسيا على وجه الخصوص، ولإقامة أطر ذات سيادة في مملكتي نابولي وبولونيا. يعني ذلك في النهاية إرغام لندن، التي كانت تطالب بإشراف شامل على مجمل الجسم الماسوني، على الدخول في مفاوضات على أساس المساواة والند للند، وإقناعها بمبدأ تنظيم الأطر الماسونية على أسس قومية. حين شعرت الماسونية البريطانية بالخطر يهدد هيمنتها، وذلك في أعقاب مواجهتها مع التيارات القديمة أيضاً، تصرفت معتبرة أن عالم الماسونية لا يمكن اختزاله في أوروبا الدنيوية وحدود كياناتها السياسية، بل هو عالم يطمح، بحكم طبيعته الكونية، إلى إعادة بناء سلسلة وحدوية بين الإخوة المشتتين في أصقاع الأرض، وإلى اختراق الحدود السياسية واللغوية والطائفية. جذبت هذه الحجة البرهانية غالبية من ماسونيي الأنوار في حين ظفر النموذج القومي في الماسونية بضم مستبدين متنورين من الحريصين على السيطرة على المحافل في دولهم، في النمسا والسويد على وجه الخصوص، لكن هذا النموذج لم يتمكن من فرض نفسه إلا في القرن التاسع عشر. غير أن التعارض بين هذين التصورين أثبت أن الأنوار الماسونية هي كالدنيوية من صنع أشكال الوعي القومي، في حين أن الكوسموبوليتية، التي كان عليها أن تعمل على توحيد الساحة الأوروبية، قد أصيبت بالهشاشة بفعل الخصومات والمنافسات بين

المصـالـح القـومية، وبفعل قلق الأمراء حيال احتمال تفلت بعض الأنظمة من سيطرتهم.

تبنى ماسونيون آخرون موقفاً أكثر حزماً، فرفضوا أي تماهٍ بين جمهوريتهم الكونية وبين أوروبا القرن الثامن عشر وامتداداتها الكولونيالية، واعتبروا أن على الأعضاء، إذا ما أرادوا بناء مدينتهم الفاضلة، أن يقطعوا نهائياً مع عالم دنيوي مصيره الخواء. بعد أن تخيلوا، لفترة من الزمن، كيف يستثمرون الجزر في لامبدوزا وليموزا «Lampedusa et Limosa»، قبضوا على القارّة البكر، أوستراليا، حيث يمكن لحراس الهيكل أن يؤسسوا دولة ماسونية. أما البارون دو هانت (de Hundt) الذي كان عليه أن يؤسس الرهبانية ستريكت أوبسرڤانس فقد وقع اختياره على شبه جزيرة لابرادور «Labrador» (الكندية) لكي يشيّد عليها جمهورية أرستقراطية.

III ـ شبكات أوروبا الماسونية

أياً يكن النموذج المتبع، على شكل جمهورية ماسونية بحدود جغرافية غير ثابتة، أو محصورة في أوروبا ومستعمراتها أو كونية حقاً، فمن غير الممكن وضعها موضع التنفيذ من دون قيام شبكات مراسلة ومحافل تعصب الجسد الماسوني وتمنحه بنيته وتماسكه. كذلك ينبغي صوغ الأسس لقانون ماسوني دولي، وتركيز بروتوكولات تبادل الزيارات والزائرين، وتثبيت مراتب المقامات ودرجاتها بعد أن صار ذلك ضرورياً بفعل التزايد السريع في أنساق المراتب العليا. هذا ما فهمه جيداً رواد الماسونية من بناة الشبكات الأكاديمية والطائفية ومن التجار والمصرفيين والدبلوماسيين أو الفنانين، هذا، فضلاً عن الشبكات

العلائقية التي أقامها رجال الأعمال، هؤلاء الذين لا نظير لحركيتهم دانيال روش (Daniel Roche)، أي هؤلاء المغامرون.

في ميتز «Metz»، ملتقى التأثيرات الماسونية، طلب التاجر أنطوان مونييه (Antoine Meunier) من بريكور «Précourt»، في 24 حزيران/يونيو 1760، من المحفل الفرنسي الأكبر الذي كان أحد أنشط المسؤولين فيه، «لائحة بكل المحافل التي انبثقت، مثلنا نحن سلالة سان جان Saint-Jean، من محفلكم، وذلك من أجل أن تقوم بينها وبينكم هذه العلاقة الترسلية العامة التي ينبغي أن تسود من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الوسط بين كل المحافل المنتظمة». ثم تابع مهمته في هامبورغ ثم في روسيا. على الطرف الآخر من أوروبا الماسونية، في سيسيليا (صقلية) أطلق ماسونيّو سان جان ديكوس (Saint-Jean d'Écosse)، شرق باليرما، هم أيضاً إعلان مبادئ كوسموبوليتي. بعد أن وثّق علاقاته بمحافل قائمة على محيط البحر المتوسط، راح يحثّ الأعضاء في وادي الرون «Rhône» على التراسل معها. إن تجار هذا المحفل الصقلي، الذين يتحدر معظمهم من الكانتونات السويسرية كانوا وافرين للذهاب إلى بوكير «Beaucaire» بمناسبة سوق المعرض الشهير في مادلين «Madelaine». هناك كانوا يلتقون إخوانهم في العمل وإخوتهم في الماسونية على أعمدة الهيكل في المحفل المحلي ثم راحت تتسع شبكة باليرما Palerme باتجاه محافل الداخل، حتى كادت تتطابق تماماً مع شبكة محفل سان جان في متز. فقد بدا الأعضاء من باليرما متطلبين حتى مع المحفل الأم في سان جان ديكوس، شرق مرسيليا. وهكذا وجد زائر من مرسيليا نفسه ممنوعاً من الدخول إلى المعبد الصقلي، لأن محفله منع التراسل معه. وما إن عادت العلاقات الترسلية حتى استؤنفت الزيارات

المتبادلة بصورة طبيعية. إن اللقاءات العرضية وكذلك الزيارات المتوقعة كانت تشكّل فرصاً مطلوبة بشوق للمبادرة إلى مبادلات جديدة والانفتاح بواسطتها على ممارسات ماسونية جديدة.

سرعان ما كانت هذه الولاءات القومية تعي أن شبكات المراسلة والتبادل هذه تتيح للمحافل المماثلة أن تتحرر وتنفلت، وأن تبني من العلاقات المستقلة التي تسمو عن الحدود السياسية، حيث يمكن لها أن تلعب دوراً على قياسها؛ تلك كانت، على وجه التحديد، حالة مرسيليا في حوض المتوسط، وليون في وسط أوروبا أو ستراسبورغ. إن محفل الشرق الفرنسي الأكبر جعلها تحترس: «إن المراسلة مع الخارج تجرُّ دوماً عواقب وخيمة. المسافة بين الأمكنة كانت تتسبب بتأخيرات خطيرة، حتى أن من المحتمل أن ينقطع كل اتصال، فيبقى المحفل معزولاً وواهناً محروماً من الآراء والمساعدات التي يحتاج إليها. أما الصلة بمحفل كمحفل الشرق الأكبر، فهي على العكس، غير معرضة لأي خطر وتنجم عنها أكبر الإيجابيات».

إذا كانت تلك المبادلات، حتى ذلك الوقت، أمراً مطلوباً، فلأن مشروع الآباء المؤسسين (1717 ـ 1723) ليس سوى «السماح لأناس، لولا ذلك لما أمكن لهم أن يلتقوا أبداً»، السماح لهم بأن يكتشفوا ويقيّموا بعضهم بعضاً. إن استقبال شخص آخر يجد المرء فيه أخاً له، أو استقبال هذا المسافر الأجنبي الذي يحمل الدليل الحيوي على وجود قارّة اسمها أوروبا قائمة على الماسونية والأُخُوَّة، يرتدي في ظل تلك الظروف أهمية أساسية. «لن تكونوا غرباء في أي مكان؛ ستجدون إخْوة لكم وأصدقاء في كل مكان؛ لقد صرتم مواطنين من مواطني العالم كله!»، صاح بذلك فرحاً أمين سرّ المحفل (محفل سان لويس للأصدقاء

المجتمعين) محفل كالي Calais، عشية الثورة. من جهته البروتستانتي من منطقة سيڤين Cévennes (وسط فرنسا) لا بوميل La Beaumelle، الوسيط الثقافي بين فرنسا والدانمارك، معارض ڤولتير والمعجب بمونتسكيو، أسرَّ لأخيه جان، بعد استقباله في جنيف حيث راح يستكمل تعليمه: «لم أعد أبداً أجنبياً!» إن الانتماء إلى أُخوية أوروبية هو عنصر طمأنينة للأجنبي خلال سفره. فيليب غوزوين (Philippe Goswyn) من نيني Neny يقدم أيضاً شهادة ثمينة: من ذوي الشأن، ابن القدير باتريس ـ فرنسوا (Patrice-François)، قائد ورئيس المجلس في بلاط الإمبراطورة الملكة ماري تيريز (Marie-Thérèse)، لم يتردد في مغادرة البلاد المنخفضة النمساوية سراً، رافضاً اتّباع خطى والده، ليقوم برحلة تبدأ من لِييج، لتمر بباريس وجنيف وتصل به إلى إيطاليا ثم اليونان ثم القسطنطينية، حيث يبحر من هناك إلى توسكانا عام 1766، قبل أن يبلغ مرسيليا، فيزور معبد سان جان ديكوس Saint-Jean d'Écosse، وكتب إلى ماري كارولين موراي (Marie-Caroline Murray): «أمضيت بعض الوقت في طولون «Toulon» حيث جعلتني الماسونية وبعض الرسائل على صلة باكرة مع كل فريق البحرية».

هنا نجد بداهة علامة الألُفة في شبكة علاقات كوزموبوليتية وأوروبية بصورة رسمية، يمكن درسها بصورة معمقة ورسم خرائط تجسدها إذا ما فتحت بعض سجلات الأرشيف، وخصوصاً الأرشيف الروسي. هناك سياق مختلف أكثر مأسوية يعرفه جيداً اللاجئون السياسيون. إن تاريخهم مرتبط فعلاً بتاريخ الأُخُوَّة الماسونية، من اليعقوبيين في سنوات (1688 ـ 1746) حتى الروس البيض والمانشفيك مروراً بوطنيي باتاف (batave

= جمهورية هولندا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر) بين عام 1785 ـ 1787، والليبراليين البرتغاليين واليونانيين والإسبانيين في سنوات (1820 ـ 1830). كانت الماسونية تمنح هؤلاء المسافرين، بإرادتهم أو بغير إرادتهم، زاد المسافر وشهادة مؤشراً عليها من أمين السر في المحافل المقصودة، وذلك كمقدمة تهيئ لجواز سفر ماسوني كان قد حلم بصدوره جوزف دو ماستر (Joseph de Maistre)، الصورة المركبة لماسونية ساقوا («Savoie»، منطقة جنوب فرنسا على حدود إيطاليا) والماسونية الأوروبية: «العلاقة الوثيقة بالإخوة الأجانب التي تشكّل بصورة أساسية الجمهورية العالمية، وواجباتنا حيالهم، كل ذلك مما يرتدي أهمية كبرى. ينبغي سن بعض القوانين الصالحة حول هذا الأمر يكون من شأنها إقامة مزيد من العلاقات ومزيد من الاتحاد بين مختلف الجمعيات، والمواءمة بين الرفق والحذر حيال الإخوة المسافرين».

الأُلفة الماسونية تستجيب للرغبات الخاصة والإضافية لدى جماعة الأمراء لوسيان بيلي (Lucien Bély)، ومملكة الطقوس والعادات في أوروبا دانيال روش (Daniel Roche)، والعسكريين المتنقلين والتجار والمصرفيين والطلاب والشبان ذوي الشأن والحسب والنسب الذين يقومون بجولتهم التثقيفية التدريبية مصحوبين بمربيهم، وذلك باعتماد شبكات استقبال ملائمة لن نذكر منها إلا بعض الأمثلة: طهارة (Candeur) ستراسبورغ، محفل الجامعة اللوثرية في ستراسبورغ، اجتماع الاجانب، محفل الشرق الباريسي، محفل سفارة الدانمارك، الجمعية الإيرلندية للشمس المشرقة، محفل طلاب الطب الإيرلنديين في جامعة باريس، الأصدقاء المجتمعون، محفل رجال المال البروتستانت، محفل

الفنانين الفرنسيين والأجانب المشهور وأنصارهم، الصداقة، الصداقة الألمانية، محفل العائلات الكبرى لتجار بوردو ذوي الأصول البلطيقية. هذه المحافل مذكورة في كتب «دليل المسافر»، مثل كتاب «دليل الهواة والأجانب من المسافرين إلى باريس»، لمؤلفه فانسانت ـ لوك تييري (Vincent-Luc Thiéry).

IV ـ المستبعدون المنفيون

غير أن كوزموبوليتية عصر الأنوار لا تتطابق مع العالمية، لأن جمهورية الماسونيين العالمية تتطابق، في نظر أغلبية الإخوة مع حدود أوروبا المسيحية («المسيحي الحقيقي، ذاك هو الماسوني الحقيقي!»)، بل حدود مملكة الكياسة والذوق السليم حيث يمكن أن يستمتع المرء بوجوده بين ذويه. موتاتيس موتانديس (Mutatis Mutandis) هيٍ جمعية الأرستقراطيين في اليونان القديمة، الذين يدركون كيف يشكّلون، ما وراء الحدود السياسية، طائفة من أمثالهم، من الأقران الذين جعلوا المعايير الثقافية المتحدرة من «التقدم الحضاري» معاييرهم. إن طرقات الجولة الكبرى ومراحلها الإلزامية، والإقامة في الأكاديميات والجامعات الأوروبية، المربين الأجانب، التحدث بالفرنسية لغة موحدة لأوروبا الأنوار، زيارة صالونات جمهورية الآداب وشخصياتها، كل ذلك أسهم في صنع هذه النخبة الأوروبية بعُدَّتها القليلة، لكن بمساحة اجتماعية ونفوذ سياسي وثقافي ملحوظين. هذه النخبة هي التي حددت المعايير الاجتماعية والثقافية التي تؤهل المرء أو تجرده من أهليته. وهكذا بتنا نرى بوضوح الأعضاء يحددون معايير الانسجام التي ينبغي أن يتمتع بها مسبقاً كل مرشح للعضوية لأجل قبوله عضواً في معبد الأصدقاء المختارين؛ وإلاّ فيخشى من تشويش الانسجام

الأخوي. غير أن غوتهولد أفرايم ليسنغ «Lessing» عاب على إخوانه استقبالهم في أحيان كثيرة أشخاصاً أجانب ظنوا مسبقاً، خلال الاختبارات التدريبية أنهم يشبهونهم. هذا الرفض المزدوج للآخر المحاط بشكوك كبيرة، وللاختلاف الذي، بدل أن يكون مصدر غنى للجماعة الصغيرة أسهم على العكس في انحلالها، أدى بمحافل القرن الثامن عشر إلى حصر عالم الماسونية ورسم تخوم الهوية الماسونية المحددة إلى حد بعيد بمعايير دنيوية. إن الأعضاء، بحصرهم عالم الماسونية، توصلوا إلى تحديد ملامح «الماسوني الجديد» ـ ما يتناقض حتماً مع مبدأ المُسَارَّة والموت في العالم الدنيوي، وهو ما ارتضوا به ـ وملامح نقيضه «الآخر المطلق» ـ في مقابل الأنا ـ الآخر الذي يهدد الاختلاف غير المقابل للاختزال معه وحدة الجماعة الأخوية. استناداً إلى السياق والمحيط الدنيويين، حددوا هذا الآخر المطلق باليهودي والمسلم أو «بالدم المخلوط» في جزر الأنتيل، الذي يحمل على وجهه آثار السديم التفارقي الذي يهدد المجتمع الاستعماري، إذا ما حصل التسامح مع الثمار المسممة للزيجات المختلطة. إن طريقة التعاطي مع اللقاء بالآخر باعتباره «القرين المستحيل» يكشف عن رسوخ الأحكام المسبقة الخاطئة وعن وطأة الاستيهامات على المخيال الاجتماعي.

مع نهاية هذه الجولة الاستكشافية السريعة في أوروبا الأنوار الماسونية، مع نجومها الأساسيين وكواكبها وحقول الظل والتشوش فيها، تظهر ماسونية القرن الثامن عشر مركبة ومتناقضة، بكلمةٍ واحدة، متنوعة. يبدو أن هذا الكون المغروس في الجزر الماسونية، هذه المعمورة من المحافل المتفاوتة الأثر، ليس عالماً في طور الانتشار والتوسع، ومآله الإحاطة بالحياة الدنيا. ولئن كان لهذا الكون نزعته الشمولية الكلية فسرعان ما وجد

نفسه محاصراً من مؤسسيه، على غرار الإمبراطورية الرومانية في ظل حكم أوغست (Auguste). غير أن حدوده ليست ماسونية بل هي دنيوية: لغوية وسياسية ودينية وثقافية واجتماعية أو الأحرى: إثنية. إن «ماسونية المجتمع» مع محافلها البلاطية (محافل القصور)، ومسارحها وحفلاتها الراقصة وحفلات العزف والصيد تضفي صبغة على العادات والطقوس السائدة في قلب المملكة الأوروبية، حيث تفتحت في المنطقة الوسطى بين الفضاء العائلي والفضاء العام.

V ـ الأنوار الماسونية الأنوارْ الدنيوية

المعروف أنَّ العلاقات بين الماسونية والأنوار ترقى إلى جذور تكوُّن النظام. الجمعية الملكية النيوتونية وفرت للمحفل الأكبر في لندن ملهميه ومبدعيه وعرابيه الأرستقراطيين بدءاً من عام 1717. ولم تكن حركة الأثريات (الأنتيكات) قليلة الأثر. ذلك أن الهواة والبحاثة وهواة التجميع نشّطوا أعمال المحفل. في فرنسا بيِّن دانيال روش سرعة وأهمية التدفق الماسوني لأكاديميي المناطق (المقاطعات) في القرن الثامن عشر. وبدا الماسونيون في المقابل في نشاط استثنائي لتحديث أطر الأُلفة الأكاديمية عشية الأنوار، فأدانوا، بتأسيسهم متحفَيْ باريس وبوردو وجمعية فيلاتين Philathènes في مدينة متز، قانون النفي المتبادل بين الفراغ الأرستقراطي الملائم للفنون والهياج التجاري المعروف باعتراضه على تفتح المواهب الفنية. في باريس استقبل محفل الأخوات التسع، وريث محفل العلوم في هلڤتيوس «Helvétius»، استقبالاً حافلاً كلاً من ڤولتير وبنجامين فرانكلين (Benjamin Franklin) إضافةً إلى وجوه أخرى من متنوري أوروبا

والأطلسي. مع ذلك، كانت ألمانيا، بلا منازع، المكان الذي كان فيه التلاقح بين الأنوار الماسونية والأنوار الدنيوية الأكثر زخماً وخصوبةً، على ما يشهد مشروع المتنور النمساوي إغناز ڤون بورن (Ignaz von Born).

كان أستاذَ كرسي (أي رئيساً) لمحفل كوزموبوليتيٍ في ڤيينا، اسمه «الانسجام الحقيقي» Véritable Harmonie، وواحداً من مواطني جمهوريات الآداب والعلوم - زميل الجمعية الملكية في لندن (1774) وعضواً مشاركاً في أكاديميات ستوكهولم، أوبسال، غوتنجن، سان پِترسبورغ، بادو، تولوز، وفي الهيئات الإدارية، واحداً من بُناة الجمعية السرية المؤيدة للأنوار الجذرية، ومنشئاً جريدة الماسونيين، وواضعاً مشاريع أكاديمية شتى. إغنازڤون بورن (1742 - 1791) كان في صميم الشبكات التي ربطت أوصال أوروبا الأنوار، الماسونية والدنيوية. لم يخب ظن معاصريه فيه؛ ففي رسالة مؤرخة في آب/أغسطس 1784 كتب جورج فورستر (Georg Forster) متحمساً: «لا يمكن للمرء إلا أن يغتبط حين يرى روح الأنوار وحرية التفكير تنتشران أكثر فأكثر كل يوم، حتى في البلدان الكاثوليكية... إن محفل الانسجام الحقيقي Véritable Harmonie هو المحفل الأكبر تأثيراً بهذا المعنى، فهو نشر جريدة للماسونيين تتحدث عن الإيمان والقَسَم والتعصب والاحتفالات، بكلمة واحدة، عن كل شيء، بحرية كبيرة لا تتوافر عندنا في ساكس المنخفضة (منطقة من ألمانيا)، وكان في عداد كتابها أفضل بحاثة ڤيينا وأهم شعرائها، وتحولت إلى جمعية للعلماء وهواة التنوير وخصوصاً غير المتعصبين».

كان بورن (Born) تلميذاً ثم راهباً لدى اليسوعيين ثم ترك فجأة عالم الكهنوت قبل أن ينطق بنذور الرهبنة، وقد سلك سبيلاً

يشبه ذاك الذي اتبعه مثقفون ماسونيون آخرون نمساويون من الصف الأول مثل ألويز بلومر (Aloys Blumauer) أو كارل ليونارد رينولد (Karl Leonhard Reinhold) اللذين نشآ في عهدة اليسوعيين، بل اللذين كانا من قدامى اليسوعيين. في ڤيينا عقد بورن لقاء حاسماً ارتبط خلاله بصداقة ثابتة مع جوزف ڤون سونونفلس (Joseph von Sonnenfels) الذي أدخله في حلقته. عام 1763 كان هذا الاخير أستاذاً للعلوم السياسية في ڤيينا. والحال أن جامعة ڤيينا كانت منخرطة في صميم عملية إصلاح ـ سياسي وإداري وتربوي أطلقتها الإمبراطورة ـ الملكة ماري تيريز ومستشارها جيرهارد ڤان سويتن (Gerhard van Swieten)، ثم تبناه واستكمله جوزف الثاني. حدد الفريق الذي تجمع حول سونونفلس هدفه بتطوير الثقافة «القومية»، خصوصاً المسرح الألماني وتأسيس أكاديمية خاصة للفنون الجميلة.

تابع إغناز ڤون بورن تكوينه الثقافي في پراغ، حيث درس الحقوق وعلم التعدين والجيولوجيا، وختم برحلة تقليدية عبر أوروبا قادته إلى ألمانيا والبلاد المنخفضة وفرنسا. عام 1770 تولى إدارة مكتب التنقيب عن المعادن في پراغ، فصار إذ ذاك عضواً في محفل الاعمدة المتوجة الثلاثة وسار على خطى سونونفلس (Sonnenfels) بعد سنوات عشر. فأنشأ بدوره جمعية خاصة تهتم بالرياضيات والتاريخ القومي والتاريخ الطبيعي. كانت جمعية بوهيميا العلمية ذات علاقة وثيقة بمحفل پراغ، وقامت، فضلاً عن ذلك، بإصدار دوريات عدة بمشاركة فاعلة من بورن، الذي باتت مؤلفاته معروفة على الصعيد الأوروبي، ومنها الفهرس المعلل لمجموعة أحفوراته. عام 1776 عينته ماري تيريز في المتحف الملكي ليعيد تنظيم قسم المعادن.

دخل بورن إلى المحفل الحديث العهد في 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1781، وتولى إدارته منذ التاسع من آذار/مارس 1782، حيث صار في إمكانه عرض برنامجه الماسوني للعمل التربوي والعلمي على الإخوة الأعضاء. ولأنه كان يعرف تمام المعرفة أن عدم وجود أكاديمية ملكية للعلوم في ڤيينا هو بمثابة عقوبة للأنوار النمساوية؛ فقد تمنَّى لو كرَّس محفله لإعلاء شأن الأنوار وتعميمها وجعلها عماداً للنشر العلمي. استند إلى ما سُمِّي قوانين أندرسون فاقترح أن يختار الأعضاء موضوعات الدراسة في الفنون التشكيلية والأخلاق والرياضيات والعلوم الطبيعية، وأن يعرضوا محصلة أبحاثهم على سائر الأعضاء أول يوم اثنين في كل شهر خلال انعقاد «جلسة تطبيقية» للمحفل. إن المحفل، كمدرسة للفضيلة، يمكن أن يتحول أيضاً إلى مكان يتثقف فيه المرء ويُغْني معارفه ويسهم من خلاله في التقدم التنويري.

تبنَّى المحفل بحماسة مشروع بورن، فجمعت الجلسات اعتباراً من عام 1783، أكثر من 80 أستاذاً، 50 بالمئة منهم أعضاء زائرون. استكمل بورن جهازه وعُدَّته ووسع نطاق حضوره، بفضل المنشورات الدورية، وهو ما كان قد بدأه في پراغ. فضلاً عن ذلك، عرف بورن، من موقعه عضواً في لجنة الرقابة وكاتباً خضع بدوره للرقابة، أن نشرة داخلية مخصصة لأعضاء المحفل، من شأنها أن تتفادى الممنوعات وتلتف عليها، مستفيدة من توزيعها بين النخبة المتنورة، وآخذاً بالاعتبار انتشار المحافل انتشاراً واسعاً على ساحة أوروبا، والنسبة المرتفعة لعدد المنضوين إلى المحافل الماسونية على صعيد المنطقة الألمانية. هذا هو موضوع اهتمام جريدة الماسونيين، وهي بمثابة تقرير حقيقي عن أعمال المحفل؛ كانت تصدر فصلياً بألف نسخة وبسعر

مبيع مرتفع لم يشكّل عقبة أمام شرائها من المشتركين. كما صدرت جريدة فُور فريمورر Journal für Freymaurer بدءاً من 1784 باثني عشر عدداً حتى عام 1786، وكان يرئس تحريرها الشاعر والناقد بلومور (Blumauer) الذي كان يجنّد كل المراسلين الماسونيين وأعضاء الجمعيات التنويرية من خلال الدول في هابسبورغ لكي يرفع عدد الاشتراكات ويزيد من انتشار أعداد الجريدة. كانت الرسائل الواردة من كل الإمبراطورية تشهد على الصدى الفعلي للمشروع؛ لقد تضافرت على أعمدة الجريدة، كما في المراسلات التي أعلنت عنها وغذتها وأطالت أمد قراءتها، شبكات الصداقات الشخصية والانتماء المشترك إلى الماسونية، وكذلك إلى جمهورية الإداريين أو العلماء: بورن وفريدرش مونتر (Frieddrich Münter) ينتميان مثلاً إلى جمهورية أوروبية وكونية لعلماء المعادن التي يجتمع فيها علماء وهواة لديهم ثروة كبيرة من تشكيلات مقتنيات ومن نوعية معلومات في إمكانهم نقلها وتعميمها. لقد أقنع بورن أحد متنوري الصف الأول، كارل ليونارد رينولد (Karl Leonhard Reinhold)، أستاذ الفلسفة في إيينا Iéna، بأن يرسل إليه مقالات للجريدة، ولم ينس أن الأمر يتعلق أولاً بنشرة دورية ماسونية؛ وهو نفسه من نشر المحاضرة الافتتاحية لجلسات التطبيق وخصصها للكلام على العجائب المصرية (المحاضرة أوحت لاحقاً إلى وضع كتيب بعنوان «الناي المسحور La Flûte Enchantée»)، مدركاً أهمية الموضوع وجاذبيته، ليحارب من خلاله الشعوذة والأساطير؛ كما كانت الجريدة تعلم قراءها عن الأخبار الماسونية في دول الهابسبورغ ودول الخارج.

من أجل تعميم المشروع العلمي الخاص بالماسونيين المتنورين المجموعين في محفل الوئام الحقيقي، نشر بورن بين

عام 1783 و1788 سبعة مقتطفات من الأعمال الفيزيائية لأصدقاء الوئام في ڤيينا، وهي فصلية من جزأين. تناولت المساهمات أيضاً علم النبات وعلم الفلك. وفيها أيضاً كتابات وصفية جغرافية، خصوصاً عن سيبيريا، وكتابات عن صناعة الزجاج وعن عصفور الطنان (Colibri) وعن الحفريات. لقد سعى بورن بوضوح إلى جمع معاونين من كل مكان وبعيداً عن المواضيع الأثيرة لديه. من ناحية أخرى، كان في إمكانه خلافاً للجريدة الأخرى (فريمورر Freymaurer) أن يستكتب غير الماسونيين. لقد تضافرت جهود الأنوار والأنوار الماسونية والالتزامات الإصلاحية والأخوية في الجريدة بصورة دائمة، وكان ذلك أَحد ميزات الماسونية في دول هابسبورغ.

بين أممية وشتات أمكن لجمهورية الماسونيين الشاملة أن تغذي مشروعاً أوروبياً. وهكذا فهي حاولت أن تجسّد إعلان مبادئ تنويري كوزموبوليتي قبل أن تجد نفسها في مواجهة فظة مع بروز المشاعر القومية.

الفصل الرابع

وحدة وانقسامات في أوروبا التنوير

«نحن، الأوروبيون...»

فرانسيس بيكون، 1623

I ـ أوروبا الفرنسية: سوء تفاهم؟

1 ـ النموذج الفرنسي وحدوده

حين تستحضر أوروبا الفرنسية في القرن الثامن عشر، يظهر أحياناً أن خطاب ريفارول (Rivarol) المنوّه به في أكاديمية برلين عام 1784، المتعلق بعالمية اللغة الفرنسية، هو بمثابة مرجع إلزامي إلى الحد الذي ينسينا غالباً مقالاته في التوكيدات وطبيعة النص: هو ذاكرة أكاديمية موجهة إلى مؤسسة بنت شهرتها واتصالاتها الأوروبية على صلتها الحميمة بالأنوار والصحافة الفرنسية وأعمالها المكتوبة بالفرنسية وتجنيدها أعضاء منتظمين من الفرنسيين. هل يمكن فعلاً أن يكتب بحق عام 1784: «يبدو أن الوقت قد حان ليقال: العالم الفرنسي على غرار ما كان يقال: العالم الروماني، والفلسفة، التي أرهقتها رؤية البشر منقسمين دوماً على

مصالح سياسية متنوعة تغتبط اليوم وهي تراهم من أول الكرة الأرضية إلى آخرها يتشكَّلون في جمهورية تسيطر عليها لغة واحدة»؟ جان كريستوف شوال (Jean-Christophe Schwal) الذي يشاطر ريڤارول (Rivarol) الأمجاد الأكاديمية كان أكثر وضوحاً. إن دراسته حول أسباب عالمية اللغة الفرنسية والمدى الزمني المعقول لمملكتها يطرح بصورة إيجابية كون اللغة الفرنسية وسيلة تواصل دولية بل شاملة، لكن الدراسة تشدد على ضرورة أن تتفرغ كل أمة لتنمية وتطوير لغتها الخاصة، إذ لا يجوز أن تنتشر الفرنسية على حساب اللغات الأخرى الأوروبية، لأن هيمنة لغة ما أمر خطير.

حالة السويد تستحق أيضاً الاهتمام. إن نزعة المحبة لفرنسا لدى حزب القبعات مؤيد السلطة الملكية، ومناوئ حزب القلنسوات من أنصار هيمنة الأرستقراطية، ينبغي ألا يفضي إلى تشوش. لا شك أن سفراء سويديين مثل الكونت كارل غوستاف تيسين (Carl Gustave Tessin) (1695 ـ 1770) والكونت كارل فريدريك شيفر (Carl Fredrick Scheffer) (1715 ـ 1786) اللذين صارا أيضاً مربيين لغوستاف الثالث (Gustave III) ـ أو غوستاف فيليب كروتز (Gustav Philip Creutz) (1731 ـ 1785)، المقرب من مدام جوفرين، كانوا من الوسطاء الثقافيين المرموقين بين فرنسا والمملكة الإسكندينافية. كتب شيفر إلى مدام دو ديفان (Deffand)، في 24 آب/أغسطس 1753: «أحب مجد فرنسا؛ إن حبي للأمة يجعلني أعتقد أحياناً أني فرنسي، ويؤلمني أن أسمع اعتراضات على كل ما يجري عندكم». الجميع يشاركون بنشاط في حياة المجتمع؛ هواة الفن الثقاة يترددون كثيراً على السوق الفرنسية ويشترون منها لأنفسهم أو للملك، وتقديرهم للحياة الأدبية أمر ثابت؛ فضلاً عن ذلك، من المؤكد أن اللغة السويدية تضم كلمات

وعبارات فرنسية في قاموسها الإداري والاقتصادي والدنيوي؛ وحين أسس غوستاف الثالث (الذي طبعت إقامته الباريسية يوم كان ولياً للعهد، عام 1771، الحياة الثقافية بطابعها) الأكاديمية السويدية عام 1786، اعتمد فرنسا مرجعيته بصورة واضحة وصريحة: يتعلق الأمر «بإقامة أكاديمية تختص باللغة والذوق كالأكاديمية الفرنسية». على غرار روسيا، كان مهندسون ورسامون ونحاتون ومربون وكادرات عسكرية يقيمون بأعداد كبيرة بالسويد حيث تتم ترجمة الكتب الفرنسية إلى السويدية بسرعة. غير أن نزعة المحبة هذه ينبغي أن تخضع للتدقيق. فإذا كان حزب القبعات معروفاً بميله الفرنسي، فلأنه كان أيضاً ممولاً من فرنسا التي تحتاج إلى ملك قوي في السويد يحمي تحالفاً فاعلاً وذا مصداقية في مواجهة القلنسوات المحمية من إنكلترا. إن «الكوزموبوليتية اللغوية» جنار ڤون بروشويتز (Gunnar von Proschwitz) لدى السويديين لم تمنعهم، بل على العكس، من إغناء لغتهم والسعي إلى إثبات هويتها، كما أن عمليات التبادل الثقافي والفني لم تكن من طرف واحد، إذ كان الدبلوماسيون والتقنيون والعلماء يضعون المساهمات السويدية في مجالات التعدين والنبات والحديد في متناول الأكاديميات والدوريات العلمية الفرنسية. على العموم، يرى جان فرنسوا باتاي بحق أن «الازدهار الاستثنائي الذي شهدته السويد في عصر الحرية (1719 ـ 1772) سمح لها بأن تثري، بدورها، عملية التواصل الدولي، بحيث إن التبادل الثقافي بين بلدينا قد حقق توازناً أصيلاً مبنياً على الندية».

لهذا لا يمكن إنكار حضور الموضة الفرنسية في قلب مملكة أوروبا للعادات والذوق السليم، ويبيِّن ذلك كارلو غولدوني

(Carlo Goldoni) جيداً في مذكراته: الموضة هي «محرك الفرنسيين (...) إنهم هم الذين ينظمون العادات الاجتماعية في كل أنحاء أوروبا إما بالمشاهدة والعيان أو بالتصريحات أو باللباس والزينة والحلي وتصفيف الشعر وكل أنواع الزخارف والمباهج؛ وهم الذين نبحث عنهم لنقلدهم. مع بداية كل فصل نجد في مدينة البندقية، في شارع البزازة للأقمشة (Mercerie) تجسيماً مزيناً بالثياب يطلق عليه اسم لعبة فرنسا، إنه النموذج الذي تقتدي به النساء وتجعله دليلها للتبرج، وكل غرابة أو خروج عن المألوف يقاس جمالها قياساً على هذا النموذج الأصلي».

إن لُعَب الآنسة برتين (Bertin) تنتظرها قصور الأرستقراطية الروسية بفارغ الصبر، كما أن المربين والمربيات الفرنسيين مطلوبون على نحو خاص لتربية الأطفال من ذوي الشأن، من غير أن يتمتعوا بأية ضمانات، فكانوا يعاملون باعتبارهم خدماً، وكانوا لكثرتهم يحافظون على لهجتهم، في حين شعر كثيرون من الأساتذة بأنهم انخدعوا. أياً يكن من الأمر، يمكن أن يسأل المرء عما إذا كانت أوروبا الموضة والذوق هذه هي أوروبا باريسية أكثر منها فرنسية. والحال أن باريس الدنيوية هذه التي طبعت الذوق السليم بطابعها عرفت، على وجه التحديد، بكوزموبوليتها، كوزموبوليتية داخلية. فهي جسدت انفتاحها على الآخر، الآخر المعروف بكونه الأنا ـ الآخر، وبانتمائه المضبوط شرعاً إلى المجتمع الصالح وإتقانه فرنسية يُنظر إليها أكثر فأكثر كلغة محلية في مملكة الذوق الأوروبية وكلغة للقومية المهيمنة. إذا كان الأجانب المميّزون وحدهم يخوضون بنجاح امتحان حضورهم الأول في الصالون، ووحدهم يدعون إلى المشاركة في الشأن الاجتماعي، فالأمر يصح أيضاً على طلاب الوظيفة الفرنسيين. إن إعلان المبادئ الكوزموبوليتي لا يفترض حرية التنقل في المجال

الدنيوي، بل هو يتيح، على العكس، تبيان عتبة الولوج إليه. في ظل هذه الظروف ليست العاصمة الفرنسية هي التي تصنع العادات لأوروبا أسيرة وخاضعة، بمقدار ما هو مجتمع الذوق والعادات الأوروبي ذاته الذي يفعل ذلك، وأحد مسارحه المفضلة والمميزة بلا منازع هو باريس؛ لكنها المدينة التي تنفتح أيضاً بهجراتها الموسمية نحو مدن الماء مثل سبا Spa أو في قصور الأرستقراطية في الريف.

2 ـ الكوزموبوليتية وبروز وعي قومي

إن البارون دو بيالفلد (de Bielfeld) يعيد التأكيد، وهو يستعرض إنجازات الألمان في العلوم والآداب (أمستردام 1752)، على تعلقه بجمهورية أوروبية للآداب: «ليست عقلية الاستعلاء أو التنافس القومي هي التي تحركني، فأنا بعيد جداً عن ذلك، ومعتاد على النظر إلى العالم الأدبي لجمهورية وحيدة، كل شعب فيها عائلة وكل عالم مواطن، وإني أعتقد أن كل الشعوب المتحضرة دفعت إتاوة لهذه الجمهورية المشتركة». غير أن إعلان المبادئ الذي أطلقه يدل، انطلاقاً من ذلك، على صدوع أخذ بروز الوعي القومي ونضج الأنوار القومية التي ركزت على الهوية الخاصة بدخلانها في تصور طوباوي عن أوروبا الأنوار شبيه بجمهورية عالمية للآداب.

غير أن شبكة الربط التي حققتها الأكاديميات والجمعيات الاقتصادية والوطنية والزراعية، وتلك التي تشجع الفنون والآداب، على صعيد أوروبا الأنوار، لم تستطع أن تتجاهل الخريطة السياسية للقارَّة. إذا كانت خطة الجمعية الوطنية لتشجيع المعارف وللطقوس والعادات في هس ـ همبورغ Hesse-Hombourg (1775) الرامية إلى جمع كل الأكاديميات تدل على وعي الألمان بهذه

التجزئة للجغرافيا ولإرادة تجاوزها، فإن تكاثر الجمعيات الوطنية في ألمانيا (أحصي منها 200) يفسر رسوخها وقوة حضورها. إنه لأمر كبير الدلالة أن ينطلق من إيطاليا مشروع أكاديمية لا مقرَّ ثابتاً لها، قوامها شبكة اتصالية ـ بل افتراضية ـ لأنها مؤسسة على التواصل التراسلي فحسب بين أعضائها. إنها فكرة أنطون ماريو لورنيا (Anton Mario Lorgna)، عالم الرياضيات والكيمياء والهيدروليات. انخرط كلياً في الحقل الأوروبي لتبادل المعارف، وتراسل بكثافة مع لاجرانج، وأولر، وجاك وجان برنوللي (Jacques et Jean Bernoulli)، وأنجز يقظة علمية أصيلة تشهد عليها مكتبته. وتمنى لورنيا أيضاً أن يتوحد العلماء الإيطاليون بمعزل عن التقسيمات الجغرافية والسياسية لشبه الجزيرة. لقد تحرر هؤلاء من النزعة المحلية وأظهروا أنهم من مستوى نظرائهم الأوروبيين. هذا ما عزمت على تحقيقه الجمعية الإيطالية Società Italiana التي طبعت أول مقتطفات أعمالها عام 1782. فضلاً عن ذلك شكّلت، خلال الثورة، القاعدة التي قامت عليها المؤسسة القومية لجمهورية ما وراء الألب. لقد جمع سلوك لورنيا إذن، وبوضوح، الوعي الأوروبي إلى الوعي القومي، الكوزموبوليتية إلى الوطنية، وهو ما كان يُبرز الجوامع المشتركة أكثر من التعارضات. كانت هذه الفكرة المبدعة قريبة مما حاوله لودو ڤيكو أنطونيو موراتوري (Ludovico Antonio Muratori) (1672 ـ 1750)، المكتبجي في ميلانو وفي مودينا «Modène»، الرجل المهم في جمهورية الآداب وبدايات الأنوار الإيطالية، في محاولته إنشاء أكاديمية إيطالية خلال حرب العرش الإِسبانية (1701 ـ 1713). لم يبلغ المشروع غايته لكنه ترك صدى في جريدة الأدب الإيطالي الدورية الصادرة في البندقية، وهي أول إصدار أدبي في شبه الجزيرة خلال النصف الأول من القرن.

إن التنوع الفسيفسائي السياسي في الإمبراطورية وفي إيطاليا حرّك المثقفين ودفعهم إلى أن يروا في الثقافة وأدوات النشر التنويرية (صحافة، جمعيات، لغة «قومية») وسائل لتجاوز الحدود السياسية ولتنشيط مدى ثقافي قومي وتوحيده.

إن الكوزموبوليتية الأوروبية للأنوار ينبغي ألا تخفي إذن أهمية انطلاقة الوعي القومي. ففي دول هابسبورغ كافح ممثلو التنوير الجذري الذين نفذوا برنامج جوزف الثاني للإصلاح، لتثبيت قيام مسرح ألماني، وأبعد من ذلك قيام ثقافة ألمانية. فضلاً عن ذلك، أبدى البعض خشية من ألاّ يكون صدى الكوزموبوليتية الأوروبية إيجابياً جداً على الأنوار الفرنسية أو أن يخنق الموهبة القومية. لقد جرحت عجرفة «الأساتذة الصغار» الفرنسيين وادعاءاتهم مشاعر الأوروبيين وأثارت ردود فعل. غوتشيدين (Gottschedin)، من الاسم الحقيقي لويزا فكتوريا غوتشيد (Luise Adelgunde Victorie Gottsched)، زوجة الإصلاحي الألماني في اللغة والشعر والمسرح جوهان كريستوف غوتشيد (Johann Christoph Gottsched)، هي ذاتها كانت مترجمة مثابرة وكاتبة مسرحية، وقد أدانت الإفراط في التولع الأعمى بالفرنسيين. مربيتها الفرنسية (1744) تحتقر كل ما هو ألماني وكشفت بمناسبة رحلة لها إلى باريس أنها تربّي أولاد العائلتين السكسونيّتين على النصب والغش. مع ذلك ترجمت غوتشيدين كوميديات عن الفرنسية منها لو ميزانتروب (Le Misanthrope) («كاره البشر» ـ لموليير)، وكذلك تاريخ أكاديمية الفنون الجميلة والآثار، وأشرفت على ترجمة «معجم بيير بايل». ما وراء المانش كان للجولة الكبرى معارضوها الذين أعربوا عن خشيتهم لا من انحلال العادات والتقاليد فحسب بل من فقدان القيم «القومية» وتضييع الهوية «القومية». في مقابل الجولة الأوروبية (abroad)، كانت الرحلة «الداخلية» «المنزلية»

(at home) التي تتيح التعرف إلى الساحة القومية وإلى هويتها التي لا تقبل الاختزال وبناء أمة واعية لذاتها. ليس الكوزموبوليتي شخصاً بلا جنسية، غير أن التحديات بدأت تطل برأسها. لهذا أصبحت التحفظات الخاطئة التي رفعها صاحب المصنفات المتعددة، الفرنسي لويس ـ أنطوان كاراكسيولي (Louis-Antoine Caraccioli)، في كتابه «باريس، نموذج الأمم الأجنبية أو أوروبا الفرنسية (1777)»، أصبحت مفهومة بصورة أفضل:

«ليس أمراً في غير محله تنبيه القارئ لأن موضوع هذا الكتاب ليس إلاّ تأثير باريس بموضتها وعاداتها على الأوروبيين، ولأنه إن توجَّه، الأحرى، بإطراء إلى الفرنسيين فليس ذلك إلاّ بفضل أناقتهم ولطفهم، من غير أن ينال ذلك من فضائل الأمم الأخرى. هذا الكتاب هو ببساطة لوحة وسمت فيها الأوروبيين بالزي الفرنسي الذي اعتمدوه (...).

«لا قدر الله أن أحط من قدر الأوروبيين لأرفع من شأن الفرنسيين. الإيطاليون، الإنكليز، الألمان، الإسبان، البولونيون، الروس، السويديون، البرتغاليون، إلخ... أو كلكم إخوتي وأصدقائي، كلكم طيبون وفاضلون. طوبى لمن من مواطني العالم لا يعرف الكراهية أو العداوة».

لا الكوزموبوليتية ينبغي لها ولا اعتماد المثال الفرنسي أن يلغيا الهوية القومية، بل على العكس يبعثانها بالمعنى الفوتوغرافي للكلمة ويهيّئان ليقظتها. ضمن هذا المنظور ينبغي أن تُقرأ معركة جوهان كريستوف غوتشيد (1700 ـ 1766) للاقتداء بنموذج المسرح الفرنسي في ألمانيا. إن مشروعه لإصلاح المشهد المسرحي الألماني يبيِّن، في الحقيقة، تعقُّد العلاقات الثقافية الفرنسية الألمانية في القرن الثامن عشر والروابط بين الوطنية

والكوزموبوليتية. وعلى منوال زوجته ترجم عدداً كبيراً من المسرحيات، غير أن مشروعه قصد إتاحة الفرصة أمام المشاهدين الألمان لاستعادة القيم القديمة عبر تحويل المسرح الفرنسي. بالنسبة إلى غوتشيد، وخلافاً لما أكدته الكنيسة اللوثرية، للمسرح فضائل أخلاقية وتربوية، لأنه يُخرج العادات والتقاليد القديمة. ولهذا رأى أن المرجعية الفرنسية ليست تقليداً حرفياً إذن، بل ضرورة في مرحلة النهوض: «علينا، نحن الألمان، اللجوء إلى الترجمات عن الفرنسية، إلى أن يصير لنا شعراؤنا القادرون على تقديم كتابات منتظمة». بعد ذلك، عجّلت حرب السنوات السبع (1756 ـ 1763)، التي دمرت مالية الأمراء الألمان، بنضج «المسرح القومي الألماني». لقد أجيز للفرق الإيطالية والفرنسية العمل رغم كلفتها المرتفعة. وإذا كان ينبغي عدم المبالغة بالأهمية السياسية والثقافية لهذا المسرح القومي فلا يقلل ذلك من أهميته الوطنية.

إن استيراد النموذج ليس إذن خضوعاً بل إنه تطويع وتكييف، في انتظار بروز وعي وممارسة مستقلين. لذلك من المفيد التحاشي عن كل حكم متسرع على اقتباس النموذج الفرنسي في أوروبا الأنوار. فضلاً عن ذلك، يمكن أن نتذكّر كيف أن كريستيان توماسيوس قدم، لأول مرة منذ النهضة، درساً بالألمانية في 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1687، لكنه حصر موضوعه التعليمي في مسألة تقليد الفرنسيين.

II ـ أثر الصراعات الأوروبية

1 ـ مشاريع السلام الثابت

«في أية حالة مزدهرة ستكون أوروبا من غير الحروب الدائمة

التي خاضتها على مصالح واهية جداً وأحياناً على نزوات صغيرة؟»، يقول ڤولتير بأسف في كتابه «بحث في عادات وعقل الأمم L'Essai sur les mœurs et l'esprit des nations». الحقيقة أن الحرب-كانت كلية الحضور في القرن الثامن عشر على أرض أوروبا وفي البحار وفي المستعمرات. بعد أربع سنوات من الاحتراب كانت سنة سلام واحدة. مشروعان شهيران للسلام الدائم، مشروع الكاهن سان پيير (Saint-Pierre) ومشروع إيمانويل كانط (Emmanuel Kant)، حددا إطار تلك المرحلة، لكن ذلك ليس كل شيء. يمكن أن نذكر مشروع السلام العام لـِ آنج غودار (Ange Goudar) (1757)؛ الرواية السياسية عن دولة الأعمال الحالية في أميركا، رسائل من السيد فلان إلى السيد فلان حول الوسائل الكفيلة بإقامة سِلم ثابت ودائم في المستعمرات، والحرية العامة للتجارة الخارجية لـِ ساينتارد (Saintard) (1757)؛ حتى الأفراد أو مبادئ القانون الطبيعي مطبقة على سلوك وشؤون الأمم والملوك لـِ ڤاتل Vattel؛ مبادئ المفاوضات كمقدمة للحق العام في أوروبا، استناداً إلى معاهدات مابلي Mably (1767)؛ أو كذلك نظرية الاتفاقات التجارية بين الأمم لـِ بوشار (Bouchard) (1777)، وخطة من أجل سلام شامل ودائم لجيريمي بنتام (Jeremy Bentham) (1786). هذه المشاريع تدل على وعي حاد بالانقسامات الأوروبية. لا شك في أن مشاريع السلام ليست جديدة، فكتاب إيرَسموس (Érasme) عن «معركة السلام» «Querela Pacis» معروف، وكذلك «المشروع الكبير» الذي عزاه سولي (Sully) إلى هنري الرابع (Henry IV) في كتابه «الاقتصادات الملكية Économies royales». لكن الأمر، في هذه الحالة الأخيرة، يتعلق، قبل كل شيء بتحالف استراتيجي مُعدّ لمواجهة هيمنة حاكم هابسبورغ الذي بدا كعقبة أمام السلام. «لإلزام المسيحية بالانكفاء» ينبغي إذن «تقليص سيطرة ملك إسبانيا وحصرها فحسب في

مملكة الإسبان، والبدء بتخفيض هذه السيطرة الهائلة عن طريق حذف السبع عشرة مقاطعة في البلاد المنخفضة من قائمة السيطرة». وكما قال بوليه دو سان جرمان (Polier de Saint-Germain) عام 1788، «يتعلق الأمر بالأحرى برابطة تسعى إلى كسر شوكة بلاط النمسا». وما إن يجري الاعتراض على التطلع إلى مملكة هابسبورغ الشاملة حتى تتمكن المسيحية، على رأي سولي (Sully)، من تحقيق النصر في «المناطق الأخرى الثلاث في العالم، أي آسيا وإفريقيا وأميركا» و«خوض معركة مستمرة ضد غير المؤمنين من أعداء مقدس اسمه المسيح».

من المفهوم أن مشاريع السلام الدائم في القرن الثامن عشر هي من طبيعة أخرى. إن توازن القوى، مفتاح سر النظام الأوروبي منذ نهاية حرب العرش الإسباني (1713 ـ 1714)، لم يسمح بتحقيق استقرار دائم في «المجتمع الأوروبي». فقد كتب ساينتارد (Saintard) في روايته السياسية يقول: «التوازن حالة يمكن، بمعزل عن إرادة البشر، لأي حدث أن يعطّلها، وينبغي بذل الجهد للحفاظ عليها. إن السِّلم الدائم يغدو حالةً تحميها قوانين ثابتة ومُحكمة وقوة عليا، بعيداً عن كل صنوف التدخل، لأن التدخل من جانب القوى الحرة يؤدي بالضرورة إلى اندلاع الحرب». لا تشكّل المعاهدات، في نظر الكاهن سان بيير، ضمانة كافية، وقد أثبت موقف فريدريك الثاني (Frédéric II) ملك بروسيا ذلك حين قال: «الوعود المتبادلة المكتوبة أو تلك المنصوص عنها في اتفاقات التجارة أو الهدنة أو السلام [لا يمكن أن تؤدي] إلى ضمانة أكيدة لتنفيذ الاتفاقات، ولا تؤمّن الوسائل الكافية لوضع حد للخلافات المستقبلية من غير حروب، وإذا لم يتم التوصل إلى أفضل من ذلك فما على الأمراء المسيحيين إلاّ توقع اندلاع حرب شبه دائمة». من الملحّ إذن، في نظره، إنشاء جهاز لاستدراك

الأزمات وإدارتها يفرض سلطته الناظمة على كل الأمم المتعاقدة.

يسمى هذا الجهاز الأوروبي، استناداً إلى المشاريع، المجلس التشريعي أو البرلماني العام. ويكون الاتحاد، في نظر الكاهن سان پيير، مكوّناً من «ثماني عشرة ولاية مسيحية ذات سيادة، لكل منها صوت في المجلس الأوروبي العام: فرنسا، إِسبانيا، إنكلترا، هولندا، البرتغال، سويسرا وملحقاتها، فلورنسا وملحقاتها، جنوى وملحقاتها، الدولة الكنسية، البندقية، سافوا (Savoie)، لورين، دانمارك، كورلاند (Courlande) ودانتزيغ (Dantzig)، الإمبراطور والإمبراطورية (تقال عن ولاية ناپليون الأول)، بولونيا، السويد، موسكو». الإمبراطورية العثمانية مستبعدة إذن، خلافاً لحالة روسيا. لهذا يمكن عقد اتفاقات مع الباب العالي لتخفيف مخاطر التوتر على الحدود مع الاتحاد. لئن تخلت معظم المشاريع عن مبدأ قيام أوروبا مسيحية، أو جمهورية مسيحية، إلا أنها تمسكت بحدود المسيحية، بعيداً عن الانقسامات الطائفية داخل أوروبا، باعتبارها حدوداً حضارية تقع داخل نطاقها أوروبا الأنوار. بالنسبة إلى ڤولتير، «منذ زمن بعيد كان يمكن النظر إلى أوروبا المسيحية كنوع من جمهورية كبيرة موزعة على مجموعة دول» (عصر لويس الرابع عشر). روسو (Rousseau)، من جانبه، قدَّر أنه، «باستثناء الاتراك، يسود بين كل شعوب أوروبا رباط اجتماعي غير ناجز، لكنه أكثر وثوقاً من الروابط الغامضة والواهية لدى البشرية».

على المجلس أن يمتلك وسائل الحفاظ على السِلم، حتى لا يبقى النظام الأوروبي رهن تدخل القوة الهيمنية في كل حين، التي لا تفرض إلاّ سلامها «هي». وإذا اغتصبت قوة أوروبية السلام واقترفت عدواناً فإن على الاتحاد، في نظر الكاهن سان پيير، أن يشنّ الحرب عليها: «على أية قوة، لا أن تتعرض للإقصاء فحسب، بقوة الأمر الواقع بل

أن ترمي سلاحها وتعوض الخسائر التي تسببت بها، وتعطي تعهداً وضمانة للقوة المتضررة، بالتزامها التزاماً كاملاً بالحكم الذي تقرره المحكمة العليا». تبدو هذه الصرامة ضرورية في نظر الكاتب ليمنح الاتحاد ومشروع السلام الدائم مصداقية. في إطار نقدي كتب روسو قائلاً: «مثل هذا المشروع الجميل يثير الإعجاب، لكننا نعزّي أنفسنا باستحالة تنفيذه، لأن ذلك لا يتمّ إلا بوسائل عنف خطيرة على البشرية». في نظر واضعي مشاريع السلام الدائم في عصر الأنوار، لا يمكن بعد اليوم أن تقوم حرب صائبة. فالسلم الأهلي هو الحالة الطبيعية في مجتمع داخل دولة منظمة جيداً. هذا ما ينبغي تعميمه على صعيد المجتمع الأوروبي، في نظر وليم بن (William Penn) وجيريمي بنتام (Jeremy Bentham). كما أن عدداً من المؤلفين رأوا أن النظام الملكي ذا النزعة الاستبدادية يشكّل، على خلاف الملكية المعتدلة أو النظام الجمهوري، تهديداً لهذا السلام الأوروبي. لنذكّر بأن «الفضيلة السياسية» في نظر شارل دي مونتسكيو (Charles de Montesquieu)، محددة بصفتها «حب القوانين والوطن» لا يمكن أن تظهر إلاّ في الأنظمة الجمهورية. ولا يعوّض غيابها عن الأنظمة الملكية غير الشرف. إن المجازفة السياسية في مثل هذه المشاريع أمر بديهي إذن، فالمشاريع تناقش تمثيل القوى الأوروبية داخل المجلس الذي عليه تحقيق السلام الأوروبي: مساواة حسابية أو نسبية. ينبغي أن يقوم التمثيل، في نظر وليم بن، على أساس الأهمية الاقتصادية للدول. ومن الخطأ صرف النظر عن هذا التطلع الدائم إلى السِّلم الأوروبي باعتباره أمراً طوباوياً. بل هو يدل على وعي أوروبي، لا سيما أن رجال الأنوار يعرفون مدى رسوخ النماذج القومية ـ التي يشهد عليها المسرح والكاريكاتور ـ التي تكبح التواصل المنسجم داخل الساحة الأوروبية.

2 ـ قطيعة حرب السنوات السبع

إلاّ أن الحرب، إن هي دفعت إلى التفكير في الوسائل التي ينبغي اعتمادها للحفاظ على السلم، قسمت أيضاً أوروبا وسهّلت بروز نزعة وطنية جديدة بدءاً من منتصف القرن، وظهور تجليات عداء حيال الآخر الأوروبي. يصحُّ ذلك على نحو خاص على العلاقات الفرنسية البريطانية خلال سنوات (1750 ـ 1770)، التي تميّزت بالمنعطف الحاسم لحرب السنوات السبع، التي راكمت فرنسا خلالها هزائم وخيبات على غرار روسباش «Rossbach» (5 تشرين الثاني/نوفمبر 1757) على مسرح العمليات الأوروبي، الكرادلة ولاغوس في البحر، معركة سهول فلسطين والاستيلاء على كيبيك في كندا (فرنسا الجديدة) (18 أيلول/سبتمبر 1760)، أو سقوط بونديشيري «Pondichéry» في الهند (17 كانون الثاني/يناير 1761). لقد وجد إدمون دزيمبوسكي (Edmond Dziembowski) في ذلك ولادة «وطنية فرنسية جديدة». الحقيقة أن غابريال ـ فرنسوا كوير (Gabriel-François Coyer) (1707 ـ 1782)، الذي عُرف باكراً بفضل دراسته عن طبقة النبلاء التجار (1756) والجدال الذي تلاها، تأسف لغياب النزعة الوطنية عن فرنسا، وذلك في ما كتبه عام 1755، في بحوث للقراءة: الأول عن الكلمة القديمة وطن patrie؛ الثاني عن طبيعة الشعب (لاهاي 1754). لقد هجر الشعور الوطني إلى إنكلترا. غير أن أحداث الصراع الأولى التي حصلت قبل إعلان حالة الحرب (أُعلنت في 18 أيار/مايو 1756)، أضرمت العداء ضد إنكلترا. فقد استولى البريطانيون في الحقيقة على أول مركبين منذ حزيران/ يونيو 1755. إن تجليات كره الإنكليز قديمة في الظاهر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى النهضات الوطنية خلال الانتصارات الفرنسية النادرة كالاستيلاء على بورت ماهون «Port Mahon» في

مينورك «Minorque» بقيادة الدوق دو ريشيليو (Richelieu) في 23 نيسان/ أبريل 1756. كما كانت الهزائم الفرنسية أيضاً مناسبة للتعرض للوزراء القصيري النظر في مقالات ونشرات هجائية قاسية وأغانٍ. غير أن «نزعة وطنية جديدة» ظهرت بصورة عفوية وخارج أية رقابة لدعاية الإعلام الملكي واحتفالاته التي هي التراتيل الكنسية Te Deum. «حوالى عام 1760 كانت تستخدم بانتظام كلمة وطن (patrie) ومشتقاتها مثل «الوطنية» وكلها من أصول بريطانية؛ ترافق هذا التحول اللغوي مع ظهور نوع من وطنية الخلاص الرسمي، وطنية حرَّكها صعود القوة الإنكليزية وما نجم عنها، أي السمعة القوية عن أمة وطنية، وهي سمعة حافظ عليها هذا البلد خلال حرب السنواتْ السبع» (دزيمبوسكي). لقد حشدت دائرة الكلام، في الحقيقة، ثلثي المقاطع من عبارة وطن (patrie) ومشتقاتها في عناوين الإصدارات الفرنسية في القرن الثامن عشر، واستبعدت منها الثورة. إذا كان مسببو المواجهات الفرنسية الإنكليزية هم الملوك والبيوت الحاكمة والمملكتان «العدوتان عداوة طبيعية وضرورية» على ما يكتب السفير البريطاني ستاير (Stair) إلى اللورد ستانهوب (Stanhope) منذ عام 1717، في حين كانت القوتان حليفتين، فإن النصوص تعزو الأمر إلى الأمتين. عندما يشارك بعض الأشخاص في السجال يظهرون في صورة مواطنين ويثبتون هذه الصورة، حتى حين تطالب قصيدة نظمت عام 1756 بنصب عمود لكي يوضع عليه تمثال للمارشال دو ريشليو، فإن ذلك يشكّل انتهاكاً لمبدأ الاحتكار الملكي للاحتفالات.

أياً يكن الأمر، فالصراع يسلط الضوء على التباسات العداء للإنكليز في النصف الأول من القرن الثامن عشر؛ إن تجليات هذا العداء معروفة؛ لقد أحرزت رسائل ڤولتير الفلسفية نجاحاً (1734)

إذ طبع منها أكثر من 20 ألف نسخة، بما في ذلك النسخ المُقلَّدة. كتب كوندورسيه (Condorcet) في كتاب: «حياة ڤولتير»: «كان لهذا الكتاب في صفوفنا فعل الثورة؛ أخذ يخلق فينا الميل إلى الفلسفة والأدب الإنكليزيَّيْن، ويدفعنا إلى الاهتمام بالعادات والتقاليد والسياسة والمعارف التجارية لهذا الشعب، وإلى نشر لغته بيننا». أخذت الألُفة البريطانية تُغرس على امتداد القارّة عبر المحافل الماسونية. بعيداً عن الموضة، فقد أُخذ الطعم (اللقاح) لفترة مديدة كما عرفنا. إذ كانت المؤسسات الإنكليزية تثير الفضول والنقاشات الحادة أيضاً. إن مجلة پور إي كونتر Pour et Contre للأب بريڤوست Prévost (296 عدداً بين 1733 و1740) وترجماته (خصوصاً كلاريسا لصموئيل ريتشاردسون (Sammuel Richardson) عام 1751) جعلت الأدب البريطاني أدباً شعبياً، في حين سعت رحلة إنكلترا إلى أن تكون على مستوى قوة في طور الصعود. مع ذلك، لا يعني حب الإنكليز أن إنكلترا كانت معروفة من الفرنسيين عام 1756، ولا كانت مفهومة جيداً. إن تحالف السنوات (1716 ـ 1731) لم يمحُ الخلافات بين القوتين اللتين كانتا تتبادلان الشكوك في الرياء والمداهنة، ولم ينجح في تجاوز مصالحهما المتعارضة. إن لدى رواد الأنوار، هم أيضاً، ميلاً إلى تفضيل تمثل «النموذج الإنكليزي»، المخصص لنقد النظام السياسي الفرنسي، أكثر منه إلى وصف الواقع الإنكليزي. هكذا لم تخلُ ملاحظات مونتسكيو الشخصية خلال رحلاته إلى ما وراء المانش من انتقادات قاسية. لكنها لم تنشر في كتاب «روح القوانين». في المقابل، إذا كانت تجليات النزعة الوطنية الحادة قد ظلت كثيرة بعد عام 1763، كما يشهد على ذلك النجاح المباشر لعمل مسرحي، على تواضعه، كتبه بيللو (Belloy) عام 1765 وعنوانه «مقرُّ كاليه Siège de Calais»، يعظِّم فيه وطنية مختار

كاليه، أوستاش دو سان بيير (Eustache de Saint-Pierre)، وبرجوازييه، بين عامي 1346 ـ 1347، في مواجهة غازٍ شرس هو إدوار الثالث (Edouard III)، فإن الهزيمة أفهمت الفرنسيين أن القوة الإنكليزية حقيقة قائمة، وأنها بُنيت بشكل متدرج. ولم تعد الهزائم الفرنسية تعزى فحسب إلى الأخطاء الاستراتيجية التي ارتكبها الوزراء والجنرالات الفرنسيون. لقد تبدد الوهم الكبير، الوهم بفرنسا الواثقة باحتلالها المقام الأول بين الأمم (E. Dziembowski). إن ميزان القوى الجديد دفع المعاصرين إذن إلى أن يدرسوا بمزيد من الدقة والصرامة وضع هذه «الأمة الوطنية»؛ وليست الكوزموبوليتية إذن ضمانة لمعرفة الآخر معرفة معمقة، في حين يمكن أن تؤدي الاندفاعة الوطنية مع وعي جديد إلى مزيد من الاهتمام بالآخر وبمؤسساته ـ موضوع كبير الأهمية بعد حرب السنوات السبع ـ وبعوامل قوته.

خلاصة

لم تمُت أوروبا الأنوار مع ثورات ما وراء الأطلسي وأوروبا. إن تسليط الضوء على «الانتقال الثوري» الذي حصل في سنوات (1770 ـ 1830) يسمح لنا اليوم بأن نركز على حالات الاستمرار والتبدلات المتدرجة. لقد شغلت الأنوار المدى الأوروبي في القرن الثامن عشر وأسهمت في تكييفه على الصعيد المادي والثقافي والجغرافي؛ واجهت، بفعل تعددها وتنوعها، منذ البداية معارضات ومقاومات وأزمات، وأدى الاحتكاك بها إلى تطورها ونضجها؛ أُطلقت من جمهورية الآداب، فتفتحت أحياناً في مملكة الذوق والعادات الأوروبية، لكنها لم تتنكر لعقلها النقدي واللاذع؛ أسهمت في كل مكان، وبأشكال متفاوتة، في إنضاج الرأي العام

وفي تحديث البنى التربوية والدينية والاجتماعية والسياسية، وذلك طوعاً أو كرهاً. ينبغي ألاّ ننسى أبداً أن الوجوه البارزة في الرجعية الأوروبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر هم من أبناء الأنوار. لقد حملت الأنوار المشروع الكوزموبوليتي، وفتحت، في الوقت ذاته الطريق أمام النزعة القومية. غير أن مشروع إقامة مدى أوروبي مفتوح على حركة انتقال الكتب والمعارف صمد في وجه الثورات والثورات المضادة، وقد أمكن له، بتنشيطه تنشيطاً منتظماً، أن ينعش أوروبا الآداب والعلوم والفنون على امتداد القرن التاسع عشر. ألم يكتب يوهان فولفجانج ڤون غوته (Johann Wolfgang Von Goethe) عام 1827: «من الممتع جداً في الوقت الراهن أن في إمكاننا نحن الفرنسيين والإنكليز والألمان، بفعل الروابط الوثيقة بيننا، أن نصحح بعضنا بعضاً. تلك هي الفائدة الكبرى التي سيحملها أدب عالمي والتي ستظل تظهر أكثر»؟.

تحقق جاك دريدا في محاورة مع يورغان هابرماس عام 2004 هو الآخر، وبصورة معبِّرة جداً، من ضرورة العودة إلى الكوزموبوليتية الأوروبية، ودعا أوروبا الأنوار بصورة رمزية: «لكنني صامد لتسمية «أوروبا» بين مزدوجين، لأن في عملية التهديم الواسعة النطاق، المثابرة، الضرورية للتحول المقبل، تبقى التجربة التي افتتحتها أوروبا منذ أيام الأنوار (بالفرنسية والألمانية والإيطالية)، الخاصة بالعلاقات بين السياسي والثيولوجي أو الأحرى الديني، تجربة غير مكتملة ونسبية ومعقدة ولا مثيل لها، إلخ. لكنها تركت في المدى السياسي الأوروبي وفي أصول العقيدة الدينية علامات فارقة (...)».

بيبليوغرافيا

Beaurepaire Pierre-Yves, *L'Europe des francs-maçons (XVIIIe-XXIe siècle)*, Paris, Belin, « Europe et Histoire », 2002.
Bois Jean-Pierre, *De la paix des rois à l'ordre des empereurs, 1714-1815. Nouvelle histoire des relations internationales*, t. III, Paris, Le Seuil, « Points Histoire », 2003.
Bots Hans, Waquet Françoise, *La République des Lettres*, Paris, Belin-De Boeck, « Europe et Histoire », 1997.
Brockliss Laurence W. B., *Calvet's Web. Enlightenment and the Republic of Letters in Eighteenth-Century France*, Oxford, Oxford University Press, 2002.
Chartier Roger, *Les origines culturelles de la Révolution française*, Paris, Le Seuil, 1991 ; rééd., « Points Histoire », 2000.
Chaunu Pierre, *La Civilisation de l'Europe des Lumières*, Paris, Arthaud, « Les grandes civilisations », 1971.
Delon Michel (dir.), *Dictionnaire européen des Lumières*, Paris, PUF, 1997.
Détis Élisabeth (éd.), *Le Spectateur européen. Interfaces artistiques et littéraires dans l'Europe des Lumières*, Montpellier, Publications de l'Université de Montpellier, 2000, 2 vol.
Ferrone Vincenzo et Roche Daniel (dir.), *Le monde des Lumières*, Paris, Fayard, 1999.
Goldgar Anne, *Impolite Learning. Conduct and Community in the Republic of Letters*, New Haven (Conn.), Yale University Press, 1995, XV.
Im Hof Ulrich, *Les Lumières en Europe*, Paris, Le Seuil, « Faire l'Europe », 1993.
Jonard Norbert, *La France et l'Italie au siècle des Lumières. Essai sur les échanges intellectuels*, Paris, Honoré Champion, 1994 (« Bibliothèque Franco Simone », 24).
L'Europe des Lumières, dossier de *XVIIIe siècle*, coordonné par Claude Michaud, 1993, 25.
Masseau Didier, *L'invention de l'intellectuel dans l'Europe du XVIIIe siècle*, Paris, PUF, « Perspectives littéraires », 1994.
Pomeau René, *L'Europe des Lumières. Cosmopolitisme et unité européenne au XVIIIe siècle*, Paris, Stock, 1966 ; nouv. éd., Paris, Hachette, « Pluriel », 1995.
Poulot Dominique, *Les Lumières*, Paris, PUF, « Premier Cycle », 2000.
Réau Louis, *L'Europe française au siècle des Lumières*, Paris, Albin Michel, « L'Évolution de l'Humanité », 1938 ; rééd., 1971.
Roche Daniel, *La France des Lumières*, Paris, Fayard, 1993.
Venturi Franco, *Europe des Lumières. Recherches sur le XVIIIe siècle*, Paris-La Haye, Mouton, 1971 (« Civilisations et sociétés », 25).

المحتويات

أوروبا التنوير

في لحظة تاريخية حاسمة يعيشها عالم اليوم، حيث يسود منطق المحاور والفسطاطين: لا بُدّ من التذكير بالمبادئ الكبرى لعصر الأنوار، خارج إطار الترمّت الديني والتفلت العلماني، من خلال فهم "الأنوار" بغناها وتعقدها، بين "مجتمع الأمراء" و"جمهورية الآداب"، بين إعلان مبادئ كوزموبوليتي وتوليد وعي قومي.

بيار - إيف بوروبير

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة نيس صوفيا – أنتيبوليس، حيث يُدير مركز تاريخ البحر المتوسط الحديث والمعاصر.

نشر اثني عشر كتاباً، من بينها: "أوروبا الماسونية بين القرنين الثامن عشر والعشرين" (2002)، "فضاء الماسونيين"، "إلفة اجتماعيّة أوروبيّة في القرن الثامن عشر" (2004)، ونشر حديثاً أعمال المؤتمر الدولي حول الماسونيّة في المتوسط بين القرنين الثامن عشر والعشرين: أنماطها، حركة انتقالها وتحوّلها (2006).

د. محمد علي مقلد

من مواليد لبنان 1948. حائز على درجة دكتوراه من جامعة السوربون، باريس 1987. ويعمل أستاذاً في الجامعة اللبنانية. وهو مترجم كتاب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" لـ ماكس ڤيبر، و"المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني" لـ فرنان بروديل.

ISBN 9959-29-402-1



موضوع الكتاب تاريخ

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com